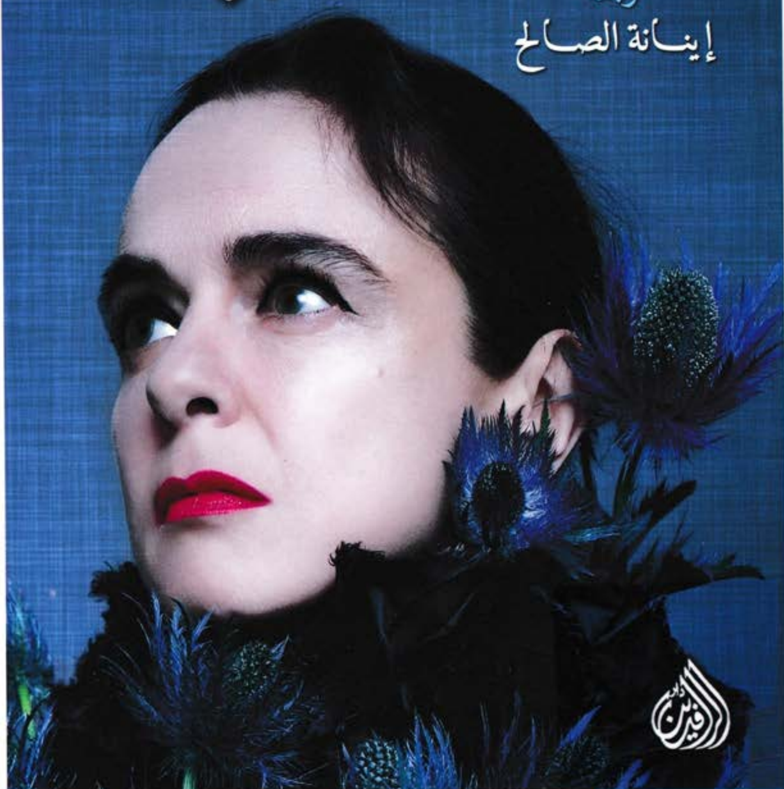
رواية

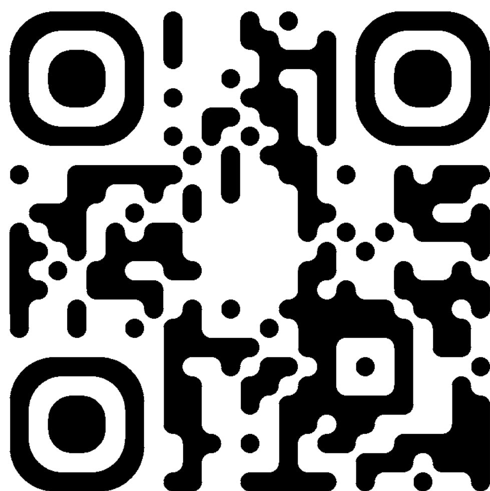
إيميلي نوتومب

مكتبة

المَنَاطِيدُ

ترجمة
إينانة الصالح





سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

المناطيد

إيميلي نوتومب

ترجمة: إينانة الصالح

Les Aérostats

By Amélie Nothomb

Translated by Inana Al-Saleh

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2025 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب المناطيد، بالاتفاق مع منشورات ألبين ميشال، باريس/ فرنسا.

This Book was translated & published under agreement with EDITIONS ALBIN MICHEL, Paris/France.



بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

 www.daralrafidain.com  daralrafidain

 info@daralrafidain.com  dar.alrafidain

 daralrafidain@yahoo.com  dar_alrafidain

 Dar ALRafidain دار الرافدين  daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 36 - 7

رواية

إيميلي نوتومب

المَنَاطِيدُ

ترجمة:

إينانة الصالح



www.daralrafidain.com

الإهداء

إلى لوريان...

لم أكن أعرف بعد أن دونات تنتمي إلى تلك الفئة من الأشخاص المتمرّسين في الإهانة، أنا أغرق في خجلي لكثرة لومها.

قالت لي: «ما من أحد يترك حماماً على هذه الشاكلة».

ـ عذراً! ما الذي فعلته؟

ـ لم ألمس شيئاً، بإمكانك رؤية ذلك بنفسك.

ذهبت لأرى، لا توجد بركة من الماء على الأرضية، وما من شعر في البالوعة.

ـ لم أفهم شيئاً.

لحقت بي متنهدةً:

ـ أنتِ لم تسحبي ستارة الدش، كيف ستجفّ؟

ـ آه! نعم.

ـ ولم تغلقي عبوة الشامبو.

ـ لكنها عبوتي.

ـ وإن يكن؟

أغلقت ما أدعوه بكل بساطةٍ «الشامبو» وليس «عبوة الشامبو»، بصراحة، كنت أفتقر إلى آداب السلوك.

قد تعلمني دونات، لم يكن عمري سوى تسعة عشر عاماً، أما عمرها فاثنان وعشرون عاماً. كنت في عمرٍ لم يزل فارقٌ كهذا يبدو فيه كبيراً.

شيئاً فشيئاً، أدركت أنها كانت تتصرف بهذه الطريقة مع غالبية الناس. فقد سمعتُ ردَّها على الهاتف:

ـ هل يبدو لك من الطبيعي أن تكلمني بهذه النبرة؟

ثم تعقّب:

ـ أنا لا أقبل أن تعاملني بهذه الطريقة!

وحالما كانت تغلق الخط، كنت أسألها عمّا يحصل.

ـ بأي حق تتلصَّصين على محادثاتي الهاتفية؟

ـ لم أكن أسترق السمع، بل سمعت.

كانت المرة الأولى التي استخدمت فيها الغسالة مأساةً حقيقيةً.

نادتني: «أنج!».

لبَّيْتُ النداء مستشعرةً السوء.

سألت، مشيرةً إلى الغسيل الذي نشرته حيث يجب: «ما هذا؟».

ـ غسلت.

ـ إنها ليست نابولي، ضعي غسيلك في مكان آخر.

ـ أين؟ ليس لدينا نشافة.

ـ إذن؟ هل أنشر أشيائي بشكل عشوائي؟

ـ بإمكانك فعل ذلك.

ـ لم يكن هذا سؤالاً. المشكلة ليست هنا، باللهِ عليكِ. وأذكِّركِ أنكِ في منزلي.

ـ ألا أسدِّد أجرتي؟

ـ آه. أبحُجَّة أنك تدفعين، فمن حقِّك كل شيء؟

ـ بصدق، ما الذي عليَّ فِعْلُه بغسيلي الرطب؟

ـ هناك غرف غسيل على زاوية الشارع، ستجدين فيها نشافة.

دوَّنتُ المعلومة، بعد أن قررتُ بشكل جازم أنني لن أستخدم غسالتها مرةً أخرى.

سرعان ما وصلنا إلى البعد الرابع.

ـ هلا شرحتِ لي سبب تغييرك مكان الكوسا الخاص بي.

ـ أنا لم أحركه.

ـ لا تنكري!

أثارت جملة «لا تنكري» ضحكي.

ليس هناك ما يستدعي الضحك، تعالي وانظري، وأشارت لي داخل الثلاجة إلى حيث يوجد الكوسا على يسار البروكلي الخاص بي.

ـ آه، نعم. كان يجب أن أغير مكانهم كي أفرغ مكاناً لوضع البروكلي.

ـ صاحت بصوت منتصر: «أرأيتِ؟!».

ـ كان عليّ أن أضع البروكلي في مكان ما.

ـ ليس في درج خضرواتي!

ـ لا يوجد غيره.

ـ إنه درجي، لا تفتحيه.

سألت بغباء: «لماذا؟».

ـ إنه عفتي.

رجعت إلى غرفتي لأخفي هزل كلماتها. ولكنها كانت على حق، ليس هناك ما يستدعي الضحك. كانت دونات مزعجةً إلى أقصى حد ممكن، لكن ما من خيارٍ آخر لدي: السكن المشترك هو الحل الأكثر جدوى الذي قد أجده، فمنزل أهلي بعيدٌ جداً عن بروكسل مما يجعل في التنقُّل مشقّةً بالغةً بالنسبة لي.

في العام الماضي، كنت أشغل غرفة في مبنىً هو بمثابة سكن جامعي لدارسي علوم اللغة المبتدئين: أياً كان السبب فأنا لن أعود إلى هذا التجمع حيث كنت أتشارك مع سكِّيرٍ كريهِ الرائحة الغرفةَ ذاتها، وحتى في حال غيابه، لا يغيب عنها الصخب الحاد على مدار الليل والنهار لدرجة كانت تمنعني من النوم أو الدراسة، وهو أمر مزعج جداً بالنسبة لطالب. لا أعرف ما هي المعجزة التي حصلت وجعلتني أنجح في سنتي الدراسية الأولى، بيْدَ أنني لا أعتزم المخاطرة فيما سيأتي.

كانت لديَّ غرفة خاصة بي، في منزل دونات. إن فيرجينا وولف على حق.. «لا شيء يوازي أهمية امتلاك غرفتك الخاصة». وعلى الرغم من أنها

لم تكن ساحرة، فإنها كانت بالنسبة لي رفاهية تمنحني القدرة على تقبُّل إهانات دونات. لم تكن دونات تدخلها، ليس بدافع احترام الخصوصية بقدر ما هو اشمئزاز منها. في نظر دونات، كنت أجسِّد دور «الشباب»: فعندما كانت تتحدث معي، كانت تُشعرني بأنني همجية. إن كل ما كان عليَّ فعله هو لمس أحد أشيائها فقط، كي ترميه في سلة الغسيل المتسخ أو في سلة المهملات.

لم أكن ذات شعبية في الجامعة، لدرجة أن الطلاب لا يلحظون وجودي. أحياناً كنت أستجمع شجاعتي وأتحدث إلى أحد الشبان أو إحدى الفتيات ممن يبدون لي لطفاء، فأتلقى منهم رداً مقتضباً.

لحسن الحظ، أنا شغوفة بفِقْه اللغة، لذا فإن قضاء معظم وقتي في القراءة أو الدراسة لم يعد مشكلةً بالنسبة لي. في بعض المساءات التي كنت أعاني فيها من الوحدة، كنت أخرج إلى المشي في شوارع بروكسل. فيتصاعد صخب المدينة في رأسي، وتسحرني أسماء الشوارع: - rue du Fossé au - Loup, «شارع حفرة الذئب»، rue du Marché _ au _ Charbon «شارع سوق الفحم»، rue des Harengs «شارع السمك المقدَّد».

غالباً ما كان ينتهي بي الأمر في السينما لحضور العرض الأول لفيلم ما، وبعدها أستغرق حوالي ساعة من السير المتواصل كي أعود إلى المنزل. كانت تسعدني هذه الأمسيات، التي كنت أعتبرها مغامرة.

عند العودة إلى المنزل يتوجب عليّ أن أكون حذرةً للغاية، لأن دونات كانت تصحو على أخفض صوت ممكن، وكانت لديَّ تعليمات صارمة ليلاً: كأن أغلق الأبواب باحتياط بالغ، وألا أطبخ، وألا أشد السيفون، وألا

آخذ دوش بعد الساعة التاسعة، غير أن الامتثال التام لهذه التعليمات لم يكن ليجنبني تلقي المواعظ الدائمة.

هل كانت لديها مشاكل صحية معينة؟ ليس لديها أيٌّ منها، بيْدَ أنها كانت تؤكد أن حاجتها إلى النوم تفوق متوسط حاجة الإنسان العادي، قائمة حساسيتها تنمو بشكل يومي، وكونها تدرس علم التغذية فقد كانت تنتقد نظامي الغذائي بعبارات مثل:

ـ خبز وشوكولا؟! لا تتفاجئي إن مرضتِ يوماً.

ـ أنا بخير.

ـ هذا ما تظنينه، سترين عندما تصبحين في مثل عمري.

ـ أنتِ في الرابعة والعشرين وحسب، ولستِ في الثمانين.

ـ ما هذه التلميحات؟ كيف تجرؤين على التحدث معي بهذه الطريقة؟

وباعتبار أن كل الاحتمالات ممكنة في هذا المكان، كنت أختار الحل البديل الأمثل، وأعود أدراجي إلى غرفتي التي كانت تطل على منعطف الجادة: كنت أسمع عربات القطار وهي تتفاوض مع انحناءاتها بصوت أنين يغريني. مستلقيةً على سريري كنت أتخيل نفسي قطاراً، ينشغل برغبته عن تحديد وجهته، لم أكن أحب معرفة إلى أين أذهب.

كان لدى دونات حبيب لم يسبق أن رأيناه، تتحدث عنه بنظرات ملأى بالرفعة، لكثرة ما بدا فيها من مزايا بِتُّ أتساءل عمّا إذا كان هذا الشخص موجوداً بالفعل.

ـ قولي بأنني أختلقها.

ـ أين هو ليدوك هذا؟

ـ ليدوفيك، من فضلِك، أنا أكره هذه الألفة.

ـ لماذا لم يره أحد؟

ـ تحدثي عن نفسك، أما بالنسبة لي فكثيراً ما أراه.

ـ متى؟

ـ في أثناء المحاضرات.

ـ هل يدرس علم التغذية مثلك؟

ـ الكيمياء الحيوية، وليس التغذية.

ـ تتكلمين عن أشياء تتعلّق بالطعام، في كل مرةٍ تحدثينني فيها عن دراستك.

ـ الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. باختصار، إن ليدوفيك فتى رصين للغاية، ويحترمني بلا حدود.

استخلصت من هذه العبارة أنهما لم يناما معاً. كان من الصعب أن تتخيَّل دونات من أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بحياة جنسية، لم تكن تتطرق إلى هذه المسألة، وبالإمكان فهم مدى تزمُّتها لمجرد منعها لي من دعوة أي شخص إلى غرفتي. حتى وإن كان ليدوفيك مجرد خيالٍ، وهذا مرجَّح، فقد شعرت بالغيرة منها. كنت أتمنى لو أن هناك شخصاً ما في حياتي، خلال العام الفائت كان لدي أصدقاء ملتَبِسون، ليسوا مثيرين للاهتمام ومع ذلك، كنت أتوق إليهم إلى حدٍّ يشعرني بالوحدة الآن. بما أنني كنت أحتاج إلى النقود، فقد نشرت إعلاناً عن مدرِّسة لغة فرنسية للمراهقين في مجال الأدب والقواعد.

نادت عليَّ دونات: «أنج! اتصالٌ لكِ».

على الخط، جاءني صوت الرجل:

ـ الآنسة دولنوي؟ رأيت إعلانك، لدي ابن بعمر السادسة عشرة وهو يعاني من عسر في القراءة. هل بإمكانك الاهتمام به؟

سجلت عنوانه، وحدد لي موعداً من بعد ظهر اليوم التالي.

وصلت في الساعة الرابعة. كان منزلاً جميلاً لا يمكن أن ترى مثيلاً له إلا في أحياء بروكسل الغنية. استقبلني الرجل الذي تواصل معي عبر الهاتف، ربما يبلغ من العمر خمسةً وأربعين عاماً ويشغل أعلى المناصب.

سألني: «ما هو فِقْه اللغة؟».

ـ إن فقه اللغة، في ألمانيا وبلجيكا، يشمل جميع علوم اللغة وينطوي على معرفة شاملة باللاتينية واليونانية القديمة.

ـ لماذا اخترتِ هذه الدراسة؟

ـ لأن نيتشه كان فقيهاً لغوياً قبل أن يكون فيلسوفاً.

ـ هل أنتِ نيتشوية؟

ـ ليس هناك من هو نيتشوي، غير أن نيتشه يبقى أفضل الملهمين.

نظر إليَّ برزانة، وخلص إلى:

ـ عظيم، إنك فتاة جادّة، أنتِ من يحتاجها ابني، إنه فتى ذكيّ، وعلى الرغم من ذكائه العالي فإن علاماته في اللغة الفرنسية تزعجني، هل بإمكانك المجيء يومياً؟

اتسعت حدقتاي، لم أكن أتصور أن تجري الأمور على هذه الوتيرة.

ـ هل تستطيعين ذلك، نعم أم لا؟

عرض عليّ أجراً بدا لي مذهلاً، قبلتُ قبل أن أضيف:

ـ يجب عليّ أن أنال رضا ابنك.

ـ ما الذي يريده أكثر؟ هذا ما ينقص، ألّا تعجبيه!

أعطاني مغلفاً يحتوي أجري، وأدخلني إلى غرفة المعيشة حيث كان ينتظرني مراهقٌ هزيلٌ، يجلس القرفصاء على الأرض، وحالما رآني نهض ليُلقي التحية عليّ.

ـ آنستي أقدِّم لك ابني، بي. بي أقدِّم لك الآنسة دولنوي، التي ستأتي كل يوم لتساعدك في منهج لغتك الفرنسية.

تململ الصبيّ: «كل يوم؟!».

ـ أخْفِ فرحتك، أيها الرجل الوقح! أنتَ بحاجةٍ إليها بشدة، كي تنجح في الحصول على شهادة البكالوريا الفرنسية.

ـ البكالوريا؟ هذا غير موجود في النظام المدرسي البلجيكي.

ـ بي يدرس في ثانوية فرنسية. حسناً، سأترككما لتتعارفا.

ما إنْ خرج الأب، حتى أظهر لي الابن تهذيباً مبالغاً به. جلسنا إلى الطاولة أمام ملاحظات خاصة بمحاضراته.

ـ عرّفني عن نفسك.

ـ أُدعى بي روسير، عمري ستة عشر عاماً، من أصل سويسري، والدي هو غريغوار روسير، وهو تاجر عملات.

تاجر عملات! لم أكن أعرف ما يعنيه ذلك، لكنني لم أصرِّح بذلك.

ـ جئنا لنستقر في بروكسل.

ـ أكنتم تعيشون في سويسرا سابقاً؟

ـ شخصياً، لم أذهب إليها قطّ، ولدتُ في نيويورك، وأمضيت دراستي في جزر كايمانس.

ـ هل توجد مدارس هناك؟

ـ إن صحَّ التعبير.

كبحتُ نفسي عن طرح المزيد من الأسئلة حول الجوانب المريبة لعمل والد تلميذي.

ـ وماذا عن أمك؟

ـ اسمها كارول روسير، إنها لا تعمل، وأنا ابنها الوحيد.

ـ حسناً، أنت تعاني من عسر القراءة، بإمكانك أن تشرح لي عن هذا.

ـ لا أستطيع القراءة.

بدا لي الجواب بلا معنى. أمسكت أول كتاب رأيته، إنها رواية «الأحمر والأسود» لستاندال، وسلمته إياها مفتوحة على الصفحة الأولى.

ـ اقرأ بصوت مرتفع.

كارثة: لقد تعثَّر في كل كلمة خرجت من فمه، بل وقلبها رأساً على عقب في معظم الوقت.

ـ وفي حال القراءة الصامتة، هل تستطيع فعل ذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ ماذا تعني بأنك لا تعرف؟

بدأ بالارتجاف.

ـ ما هي اهتماماتك؟

ـ الأسلحة.

نظرت إليه بقلق، رأى جزعي فضحك.

ـ لا تقلقي، أنا لست عنيفاً، أنا مهتم بالأسلحة، ولا أملك أيّاً منها. أحب مشاهدة الأسلحة الجميلة على الإنترنت: القربينات، والسيوف والحراب. أنا أبحث عن هذه الموضوعات.

ـ أتقرأ عنها؟

ـ نعم.

ـ إذن، يمكنك القراءة.

ـ الأمر مختلف، أنا مهتم بذلك وحسب.

ـ كل ما يتطلبه الأمر أن تقرأ رواية تهمك.

رمقني بِحَيرة، لكأنه يقول لم يحصل شيء من هذا القبيل من قبل.

ـ ما الذي كان يتوجب عليك قراءته في المدرسة الإعدادية؟

علت وجهه علامات الذهول، كما لو أنه لم يفهم سؤالي، فأعدت صياغته بمصطلحات مختلفة:

ـ هل تتذكر القراءات التي كنت ملزماً بها؟

ـ قراءات مجبرٌ عليها؟ لم يتجرؤوا على فعل مقلبٍ كهذا.

استمتعت بمصطلحات زعيم العصابة هذا.

ـ إذن، فأنت لم تقرأ رواية كاملة على الإطلاق؟

نفخ وهو يتطلع إلى رواية «الأحمر والأسود»:

ـ ولا حتى جزءاً منها. والآن، هل عليَّ أن أقرأ هذا؟

ـ بطبيعة الحال، هي رواية كلاسيكية بامتياز، ومثالية لسنِّك.

ـ كيف سأفعل هذا؟

ـ ليس هناك وصفة جاهزة لِفعل هذا، عليك أن تبدأ، هذا كل ما الأمر.

ـ وأنتِ، ما دورك؟

ـ هل تتوقع مني أن أقرأ الكتاب بدلاً عنك؟

ـ قمت بقراءته من قبل، فلماذا لا تحدثيني عنه؟

ـ لا بديل عن قراءتها. شيء لا يعوض. من الممتع جداً قراءة ستاندال!

قرأت في نظرته أنني بلهاء لا فائدة تُرجى مني.

لم يدُمْ الدرس طويلاً بما يكفي، كنت أؤثث قليلاً وحسب.

ـ اسمك بي «Pie»، اسم جميل جداً، أنت أول شخص ألتقي به يحمل هذا الاسم.

ـ كنت أفضِّل أن يُكتب من دون «e» في نهايته.

ـ هل تحب الرياضيات؟

ـ أعشقها. فهي على الأقل تعتمد على الذكاء.

تجاهلت هجومَهُ.

ـ إنه لأمر غريب، إن اسم بيا «Pia» يأتي وليس بصيغته الذكورية، لا بد أن السبب هو أن البابا الأخير قد حمل هذا الاسم.

سأل باستخفاف تعمدتُ عدم رؤيته:

ـ عمَّ تتكلمين؟

ـ بي الثاني عشر، ألا يعني لك هذا شيئاً؟ لقد كان اسم البابا إبّان الحرب العالمية الثانية، الذي لم يعارض المحرقة، بل لقد فضَّلها.

ـ لم تكن تسميتي نسبةً لهذا الرجل.

ـ أعتقد ذلك. بي، اسمك يعني التقي، هل تصلّي؟

ـ هل تمعنتِ بي جيداً قبل أن تطرحي هذا السؤال؟

نهضت قائلةً:

ـ سنكتفي بهذا اليوم، أريدك في المرة القادمة أن تكون قد أنهيت رواية «الأحمر والأسود».

صاح:

ـ هذا سيستغرق مني أسابيع!

ـ والدك يريد مني أن آتي يومياً، لذا نظرياً عليك أن تقرأها حتى الغد، وهذا معقول للغاية.

اعترض:

ـ انتظري! أنا لم أقرأ كتاباً في حياتي، وأنت تريدين أن أنهي هذا الكتاب السميك غداً؟

بدا لي الاعتراض مقبولاً.

ـ سأعاود المجيء بعد غد إذن، إلى اللقاء.

تركت الصبي منهاراً من دون أن يرد عليَّ تحية الوداع.

استوقفني الأب في الردهة:

ـ أحسنتِ! لقد صمدتِ! لا أحتمل وقاحة هذا الصبي.

ـ هل كنتَ تسمعنا؟

ـ بالطبع. المرآة الكبيرة شفافة، كنت أسمع وأرى.

ـ إنه أمر مزعج.

ـ هذا من أجل حمايتك.

ـ لا أشعر بالخطر، ابنك ليس عنيفاً، لقد سمعت ذلك.

ـ أردت أن أرى كيف قمتِ ذلك. لقد أقنعتِني. اعتراضي الوحيد: أنه ما كان عليك أن تخضعي له فيما يتعلق بقراءة ستاندال، عليه أن ينهيها بحلول الغد.

ـ لم يقرأ «بي» روايةً في حياته، وتريده أن يقرأ رواية «الأحمر والأسود» في يوم واحد، بصراحة بدت لي حجته مشروعة، ولست نادمةً على تقديم تنازل، كي لا يشعر بالاشمئزاز من القراءة.

ـ هذا الصبي يحتاج إلى الحزم.

ـ ألا تعتقد أنني استشعرتُ ذلك؟

ـ أنتِ على حق.

ـ هل يعلم بأنك تسمعه وتراقبه؟

ـ لا، بالتأكيد.

ـ بصراحة، أفضِّل أن تتوقف عن ذلك في المستقبل.

أدهشتني جرأتي وشعرت باستياء شديد من والد طالبي، الذي لم يُجبني بشيء، لأفهم أن من حقه التصرف كما يحلو له.

رافقني إلى باب المدخل وحدد لي موعداً بعد يومين.

حالما تجاوزت الزاوية، فتحت المغلف وأحصيت النقود، فكرَّرتُ محتفلةً «لم يضحك عليَّ».

في المساء عاودت التفكير في الشعور الغريب الذي تملكني في حضور هذين الشخصين: لقد وجدت صعوبةً في تفسيره.

حاولت تجاهل المعلومات المريبة التي مرَّرها لي «بي» عن ماضيه، غير أن ما علق منها هو أن الأب وابنه كانا، كل منهما على طريقته، على أقصى درجات الغرابة.

لقد شعرت بأعلى درجات الاستياء من طريقة غريغوار روسير؛ في اختلاس النظر على درسي من دون علمي، وقد أثار تصرفه حفيظتي. بغض النظر عن ذلك، كان هناك شيءٌ ما ينبعث من هذا الرجل لا يناسبني ولا يمكنني تحديده بالضبط.

لم تكن مهمتي الاهتمام بالأب بل بالابن، الذي أثَّر بي. لقد تفهَّمتُ شعوره بالضيق، فكونه في عمر السادسة عشرة هو بحد ذاته تحدٍّ كبير، ناهيك عن كونه أتى من جزر كايمانس ليجد نفسه في بروكسل، المدينة التي لطالما كان دفؤها البشري مبالغاً فيه. لم يقرأ كتاباً من قبل! إن إلقاء اللوم على التعليم يبدو لي محدوداً قليلاً، ألم يكن بإمكان والديه أن ينصحاه بذلك؟ هذا الأب الذي كان يريد أن يقرأ ابنه الرواية بين عشيةٍ وضحاها، ألم يكن ليفكر خلال الستّ عشرة سنة الماضية أن يعرِّفه بمتعة القراءة؟

على الرغم من أنني أكبر من «بي» بثلاث سنوات فقط، لكن القراءة كانت

بالنسبة لي أمراً طبيعياً للغاية. لقد اعتادت أمي أن تقرأ لي حكايات بيرولت بجانب سريري، وكان من البديهي أن أكتشف بنفسي رسائل هذه الكتب السحرية. عندما كنت في الثامنة من عمري، أصبحت مدمنةً الانغماس في العالم الخرافي للسحرة عند هيكتور مالوت وجول فيرن والكونتيسة دي سيغور. لم يكن دور المدرسة إلا جعلك تتسلل نحو الثغرة.

قلت لنفسي: «لا بد أنه في خضم القراءة الآن»، إلى أين وصل فيها؟ هل اتفق مع جوليان أم احتقره؟ تبدو بشرته في حالة سيئة، هل كان ذلك بسبب أزمة المراهقة المألوفة أم بسبب شيء آخر؟

جسدياً، لم أجده وسيماً، ومع ذلك، فهو لم يكن قبيحاً، إنه نحيل فقط وأحمق، كما يكون المراهق عادة. هل كان يشابه أباه؟ لا أظن، فقد بدا لي ـ في هذا الشأن ـ أنه يكرهه!

في اليوم المحدد كان «بي» ينتظرني بذلك الأدب الملحوظ الذي أثَّر عليه غياب والده. جلست وأشرت إلى المكان المجاور لي على الأريكة.

ـ هل أنهيتَ قراءة «الأحمر والأسود» بالكامل؟

ـ أجل.

ـ إذن؟

ـ لقد قرأته، أليس هذا ما طلبتِهِ مني؟

ـ نعم، ما رأيك فيها؟

ـ هل إضافة لذلك يتوجَّب عليَّ أن أفكر فيها؟

ـ هذا أمر حتميّ.

ـ ما الذي تدعونه تفكير؟

ـ هل أحببت الرواية؟

ـ لا! بالتأكيد لا.

ـ لماذا بالتأكيد؟

ـ لقد كان بإمكاني استغلال وقت القراءة هذا بفعل نشاطات أهمّ.

ـ مثل؟

ـ الرياضيات على سبيل المثال.

ـ لا بد أن تعترف بأنه ليس سبباً جوهرياً لكراهية هذا الكتاب.

ـ تريدين سبباً جوهرياً؟ لم تقولي ذلك. حسناً، لقد كرهت هذا الكتاب لأنه أدبٌ للفتيات.

ـ جوليان سوريل ليس فتاة ولا ستاندال أيضاً.

ـ بإمكان المرء الشعور أن هذه القصة موجَّهة للفتيات. هدف ستاندال أن تقع القارئات في حب جوليان سوريل.

ـ كثير من القراء قد أحبوا جوليان، تعلم ذلك.

ـ لا بد أنهم شواذّ، بالطبع.

ـ لم يقتصر الأمر عليهم.

ـ أنا لست منهم على أيّ حال، أنا أكره هذا النمط.

ـ إنه يدافع عن نفسه.

ـ بل هو مثير للاشمئزاز.

ـ أفهم وجهة نظرك.

ـ أكنتِ تتوقعين مني أن أحب هذا الكتاب؟

ـ لم أتوقع شيئاً.

ـ أتحبينه؟

ـ إنه أحد رواياتي المفضلة.

ـ إذن، أنتِ تحبين جوليان؟

ـ لست متأكدة من ذلك. أن نحب رواية لا يعني بالضرورة أن نحب شخصياتها.

ـ أنتِ تحبين هذه القصة؟

ـ نعم.

ـ كيف استطعتِ ذلك؟ إنها قصة طمع، لذا فهي بالفعل بلا قيمة، إضافة إلى أن هذا الطمع باء بالفشل لأسباب تافهة.

ـ أنت تحكم حكماً أخلاقياً، محبة كتاب لا علاقة لها بهذا.

ـ بِمَ يتعلق الأمر إذن، في نهاية المطاف؟

ـ يتعلق بالمتعة التي يختبرها المرء بقراءته.

ـ لم يصلني الإحساس بالمتعة من خلال القراءة.

ـ ليس لديك فكرة مسبقة عنها. إن لم يمنحك هذا الكتاب المتعة، فإن كتاباً آخر قد يفعل.

ـ أيّ كتاب؟

ـ لا أعلم، سنرى.

انتابني حدسٌ مباغتٌ، خطفت نسخة كتاب ستاندال عن الطاولة الصغيرة، فتحته لا على التعيين، وناولته للشاب:

ـ اقرأ بصوت مرتفع.

قال متمرداً:

ـ نظراً لكوني أخبرتك أنني لم أحب هذا الكتاب!

ـ ليس هذا هو المقصود.

تنهد غاضباً ونفَّذ، ومن باب الاستفزاز، قرأ بسرعة فائقة وبأسلوب ميكانيكي خال من أي تعبير.

قاطعتُه: جيد جداً.

ـ بماذا يفيدك هذا؟

لم أجِبْ ونهضت لأتفحَّص المكتبة.

ـ هناك الكثير من الكتب في منزلك، ألم يجذبك هذا إطلاقاً؟

ـ إنه تباهٍ محض. والدتي لم تقرأها بالتأكيد، وأبي.. مَن يدري إن كان قد قرأها!

ـ لماذا لا تسأله؟

قهقه ساخراً.

وقعت عيني على «الإلياذة»، أمسكتها وعدت أجلس.

ـ ها هي قراءتك القادمة.

ـ ما هي؟

ـ إنه «هوميروس»، ألم تسمع به من قبل إطلاقاً؟

ـ هو قديم أليس كذلك؟

ـ على أقل تقدير. أخبرتني بأنك مهتم بالأسلحة، إنها حكاية حرب.

ـ كم من الوقت ستعطيني لقراءة هذا الكتاب؟

ـ يستحيل تحديد المدة، ستتصل بي عندما تنتهي.

نظر إليَّ نظرةَ حاكمٍ مغفَّل، وأنا أرى في عينيه انطباعه عني: «قد لا أعاود الاتصال بكِ قطّ، أيتها المعتوهة!» كنت أدرك ذلك، لكنها مخاطرة تستحق العناء.

طبقاً لمخاوفي، اعترضني الأب وأنا أخرج وسحبني إلى مكتبه وكلمني من دون مجاملة:

ـ هلا أخبرتِني عن اللعبة التي تلعبينها؟

ومن غير ارتباك قلت:

ـ ألم ترَ كيف قرأ ابنك؟

فكَّر.

ـ هل لاحظتَ التقدم؟ لم يتعثر في أيّ كلمة، ولم يعكس أي مقطعٍ لفظيّ.

ـ لقد قرأ بشكل سيئ للغاية، قراءة خاوية من أي نبرة!

ـ لقد عهدتَ لي بابنكَ كي أعالج عُسْرَ قراءته، يا سيدي، وليس كي أعلِّمه القراءة بفنّ.

ـ هذا صحيح، لكن الآن، كم سيستغرق من الوقت كي يقرأ «الإلياذة»؟ سيسخر منكِ!

ـ هذا ما سنراه. عقدي يتمثَّل في مساعدة «بي» على إتمام دروسه باللغة الفرنسية، وأرى أنني سأنجح. إضافةً إلى ذلك، أكرر على مسمعكَ أنني أفضل عدم مراقبتي في أثناء حصصي.

أعطاني غريغوار روسير أجري، وأخذت إجازة.

«الإلياذة» ما الذي كنت آمُلُه؟ لقد كانت مُقامرةً جهنميةً. «على الأقل لا قاسم مشترك بينها وبين الأحمر والأسود» هكذا فكرت.

في غرفتي، أعدتُ قراءة مطلع «الإلياذة» التي كنتُ قد ترجمتها عن اليونانية القديمة، بمنتهى التبجيل، وأنا في الخامسة عشرة من عمري. «كيف خطر لي أن يكون لها أثر مماثل على «بي»؟».

على وقع سحرها، واصلت القراءة. وسريعاً ما فكرت بأن الصبي قد يكون في طور قراءة ذات الأبيات الآن، أشعرني ذلك بضيق عميق لدرجة أنني لم أعد أستطيع المتابعة. «في النهاية، تم توظيفي لمعالجة عُسْر القراءة لديه وأكاد أكون نجحت بذلك» قلت لنفسي.

كان كافياً أن يقرأ كتاباً كاملاً. وقد أغضبني جداً أنَّ أحداً لم يقترح على هذا المراهق فكرة بمثل هذا الوضوح. كيف يمكن تعليم إنسان ما القراءة دون أن ندعه يقرأ؟ كان هذا أشبه بضرب رأسك بالحائط.

في الآونة الأخيرة، أشارت وسائل الإعلام إلى وجود وباء عُسْر القراءة. وأعتقد أن لدي تفسيراً لذلك، فنحن نعيش في زمن مثير للسخرية لدرجة جعلت من مطالبة شاب بقراءة رواية كاملة هو عمل منافٍ لحقوق الإنسان.

كنت أكبر من «بي» بثلاثة أعوام فقط، فكيف نجوتُ من الغرق؟ لقد رباني والداي، ببساطة ودون اللجوء إلى أساليب معينة. كان لغزاً بالنسبة لي ألا يكون لدى هؤلاء المراهقين فضول فطري نحو القراءة. وأن يُوجَّه

الاتهام إلى الإنترنت وألعاب الفيديو، بدا لي ذلك عبثياً كما لو أننا ننسب مسؤولية نفورهم من ممارسة الرياضة إلى برنامج تلفزيوني معين.

سألتني دونات: «كيف تسير أمور دروسك الخصوصية؟».

ـ أشرح حسب مقدرتي.

تجهَمت زميلتي في السكن:

ـ يا لهذا المنحرف الذي يراقبكما من مكتبه!

ـ أتفق معك، لقد حاولت منْعَهُ، لكنه لا يُبالي.

ـ لماذا لا تستقيلين؟

ـ أنال أجراً جيداً، كما أن الصبي مُهتم.

ـ آمُلُ أنك لم تقعي في غرامه؟

ـ إنه في السادسة عشرة!

انفجرت دونات ضاحكةً.

ـ لقد طمأنتِني ـ قالت ذلك بسخرية جعلتني أرغب بصفعها ـ متى موعد درسك المقبل؟

ـ لا أعلم، سيخبرني عندما يفرغ من قراءة «الإلياذة».

ـ انتظري! إنه بالكاد يقوى على القراءة، وأنتِ تعطينه «الإلياذة»؟ أتحاولين إذلاله!

ـ لقد كرِهَ «الأحمر والأسود».

ـ إذاً سيقع في حب هوميروس! لا أفهمك.

أتفق معها هذه المرة أيضاً. ولكي أنهي الحديث، قلتُ بغباء:

ـ هذا يمنحني بضعة أيام من السكينة.

في صباح اليوم التالي، اتصل بي غريغوار روسير:

ـ لقد أنهى ولدي قراءة «الإلياذة»، تعالي بعد ظهر اليوم في الموعد المُعتاد.

صُدِمت، شممتُ رائحة خداع. ذهبت إلى الجامعة بمزاج سيئ، بدا لي اليوم بلا نهاية، حتى أستاذ علم الاشتقاق الذي دائماً ما كان يسحرني، بدا لي مملّاً.

في تمام الرابعة، وصلت إلى المسكن الفخم. نهض تلميذي بقفزة واحدة لاستقبالي، حيث كان مستلقياً على الأرض. اعتقدتُ أنه تعاطى شيئاً ما، فقد كانت لديه نظرة غائمة.

ـ مرحباً «بي».

ـ «غني، يا موس، غضبْ أخيل...».

ـ هل حفظت «الإلياذة» عن ظهر قلب؟

ـ توجَّب عليَّ ذلك، فقد أحببتها جداً.

كان في حالة مغايرة، تمعنتُ في عينيه، وبدتا لي طبيعيتين.

ـ قرأتها كلها؟

ـ بالطبع، إنها مذهلة. أخيراً قصة تتمتع بمقدّرات عظيمة.

ـ نعم يمكننا قول ذلك.

ـ لا تُقارن بـ«ستاندال» خاصتك، وعلاقات الحب التافهة في الغرف. يُقال عن «الإلياذة» في أمريكا: «إنها أعظم من الحياة».

ضحكت، وبعد لحظة اشتبهت في خداعه فسألته:

ـ ألم يُصِبكَ المللُ قطَّ في أثناء القراءة؟

ـ بلى، في البداية، أضجرني وصف الأسطول اليوناني، شعرتُ قليلاً كما لو أن الكاتب يريد أن يشكر رُعاته.

ـ لم يكن هناك رُعاة.

ـ لديَّ شكوكي بخصوص ذلك، سمِّه ما شئتِ، لكن كان لديه الكثير ليفعله مع سُفنه وإسقاط اسمه. نكاد نُقسم أن لديه قائمة شروط، وأن كل العائلات اليونانية اللامعة تطالب بذكر أسمائها، تاريخ القدرة على التباهي. «اقرؤوا الإلياذة، سترون: حرب طروادة، زوجي شارك بها».

ـ رغم ذلك، من الجميل تمجيد السُفن.

ـ برأيي هي أيضاً وسيلة من أجل الإشارة إلى غُموض بوسيدون، إنه الإله الوحيد الذي دافع عن الطرواديين، فقد بنى الجدار الذي حماهم، كان بإمكانه إثارة عاصفة وجعلها تلتهم الأسطول اليوناني.

ـ لكن عندها لن تكون هناك حرب، والآلهة كانت تريد حرباً.

نعم، يبدو أنها كانت مسرورة لرؤية البشر يتقاتلون. نتفهم ذلك: سرد المعارك كان مشوقاً ورائعاً. المزعج في الأمر هو الشعور بأن هوميروس كان مُنحازاً لليونانيين.

ـ إنه يوناني!

ـ وإن يكن، لستُ طروادياً لكنني كنت في صفهم.

ـ أقرأت مقدمة جيونو؟

ـ من غير الوارد بالنسبة لي أن أقرأ مقدمة. لكن من الواضح أن هؤلاء اليونانيين كانوا أوغاداً.

ـ إنهم ماكرون.

ـ بل خائنون، أكرههم. أما الطرواديون فأقدِّرهم، خصوصاً هيكتور.

ـ ما الذي يعجبك فيه؟

ـ إنه نبيل، شجاع، كما أن لدينا قاسماً مشتركاً، فهو مصاب بالربو.

ـ لم تُذكر كلمة ربو في النص.

ـ لا، لكن وصف نوبَتِه لا يترك مجالاً للشك، فأنا أعرف الأعراض، كما أتفهَّم حساسيته تجاه اليونانيين.

ـ ومع ذلك، تبقى عناصر أخرى مثيرة للاهتمام، أوديسيوس مثلاً!

ـ أوديسيوس؟ رجل قذر! خدعة حصان طروادة، يا لها من عار!

ـ احذر من الإغريق وهداياهم.

ـ نعم هذه هي. استغلَّ عقيدة الآخر، واخترع هُدنة زائفة، رجلكِ أوديسيوس يجعلني أرغب بالتقيؤ.

ـ إنها الحرب.

ـ وإن يكن؟ ليست كل الضربات مسموحة.

ـ لم تكن هناك اتفاقية جنيف في ذلك العصر.

ـ لم يكن ليفكر الطرواديون باقتراف مثل هذا الفعل الرهيب.

ـ نعم، ولذلك خسروا.

ـ لا يُهم فقد كانوا على حق.

ـ وأخيل، ألم يسحرك؟

ـ إنه الأسوأ. نمط المحارب الأمريكي. ما قد نصفه بالشجاعة، هو غرور الأبله الذي يُعول على الحماية الإلهية إلى درجة الاعتقاد بأنه لا يُقهر.

ـ ودموعه عند موت باتروكلوس، ألم تؤثر بك؟

ـ تناقض! إن صورة المحارب الأمريكي، الذي يقتل عدداً هائلاً من الأعداء دون أن يرف له جفن، دائماً يرى أنه من غير المقبول قتل أحد من قومه.

ـ تقصد أفضل أصدقائه.

ـ وكم قتل من أعز الأصدقاء الطرواديين؟

ـ لكن عُمق صداقته مؤثر!

ـ لا، فالأوغاد أيضاً لديهم أصدقاء أعزاء، هذا كل ما في الأمر.

ـ أتساءل فقط إذا ما كنت قد تعاطفت بشكلٍ مبالغٍ به مع القضية الطروادية.

ـ قلتُ لكِ إنني أحببتُ هيكتور، تعرَّفتُ على نفسي فيه عند قراءتي لـ «الأحمر والأسود»، لم أكن قادراً على إيجاد نفسي في جوليان، وأكثر من ذلك مع النساء الطيبات، بينما مع هيكتور سار الأمر من تلقاء نفسه.

ـ ليس من أجل نوبة الربو فحسب، كما آمل.

ـ بالتأكيد لا، هناك أمثلة كثيرة عن مقدار نُبله. لكن الربو مؤشر على اشمئزازه، وأنا أوافقه في هذا.

ـ اسمع، أنا مسرورة جداً، لقد قرأتَ الإلياذة كما لم أرَ أحداً يقرأها من قبل، هذه هي ما ندعوها بالقراءة.

ـ نعم، ويا للأسف، فالإلياذة غير مُدرَجَة في برنامجي للغة الفرنسية.

ـ هناك نظرية أدبية تقول إنَّ كل رواية هي إمّا إلياذة وإما أوديسة. لذلك فلن تحلُم ببداية أفضل من هذه.

ـ حسبما فهمت فهذا يعني أن عليَّ قراءة الأوديسة.

ـ طبعاً، لا تهزّ رأسَك، فقد أحببتَ الإلياذة.

ـ لكن الأوديسة قصة أوديسيوس، وقد أخبرتُكِ أن لديَّ ضغينة تجاهه.

ـ أوديسيوس مختلف جداً في الأوديسة، وأياً يكن الأمر، فقد جعلتني نتيجة رد فعلك تجاه الإلياذة، متشوقةً جداً أن أعرف ما هو رأيك بالأوديسة.

ـ هذا سيكشفني.

ضحكت وغادرت الغرفة. كما توقعت كان الأب خلف الباب عند خروجي.

قلت على هيئة دُعابة:

ـ لا أحبِّذ أنك تتجسَّس على دروسي يا سيدي.

ـ وأنا لا أصدق ما سمعته، عندما أخبرني ولدي أنه أنهى قراءة «الإلياذة» ظننت أنه كان يكذب.

ـ ها أنت ترى الآن أن فكرتي لم تكن سيئة.

ـ أعترف بذلك.

ـ إذاً يمكنكَ الآن الوثوق بي والتوقُّف عن التلصُّص علينا.

ـ لستِ أنتِ من لا أثق بها آنستي.

ـ إذا أدرك ابنك أنك تتابع دروسنا خفيةً فإنه سيغضب، ولن ألومه على ذلك.

ـ أحبُّ «بي» من أعماقي.

ـ إنها طريقة غريبة في التعبير عن محبة كهذه.

ـ أمنعكِ من الحكم عليّ.

ـ ومع ذلك، لم أنسَ ما قلتَهُ لي البارحة. لقد تحدثتَ إليَّ كما لو أنني مجنونة.

غادرت برأس مرفوع حتى لا أُظهر له أنني ـ أنا أيضاً بالأمس عندما ذهبت ـ ظننت نفسي مجنونة.

احتاج السيد روسير أربعة أيام حتى يتصل بي. وصلت بعد الظهر حسب الموعد المتفق عليه. كان «بي» هو من فتح لي الباب، واستقبلني في الصالة كعادته، مبالغته في الترحيب تمنحني شعوراً بالضيق، لكنه يتلاشى، لحسن الحظ، حين يشرع في الكلام.

ـ أنهيتَ الإلياذة في يوم واحد، بينما احتجت أربعة أيام حتى تُنهي الأوديسة. فسِّر لي.

ـ كنتُ متعباً. لكنني مع الإلياذة أمضيت ليلة سعيدة.

ـ أتفهَّم ذلك، ماذا أيضاً؟

ـ لقد أحببت الأوديسة، لكن أقل من حبي للإلياذة. إنها لا شيء سوى قصة رجل واحد.

ـ غير صحيح.

ـ نعم، حسناً، هناك رفاقه وزوجته وابنه، لكنها شخصيات ثانوية. لم تكن الإلياذة قصة أخيل، بل قصة مواجهة بين مجموعتين من البشر.

ـ الحقيقة هي أنك لا تحب أوديسيوس.

ـ في الواقع، لا يمكننا أن نحب هيكتور وأوديسيوس في نفس الوقت.

ـ لن تظل مهووساً بهيكتور مدى الحياة.

ـ لِمَ لا؟

ـ حسناً، لقد مات هيكتور في الفصل السابق، دعنا نقلب الصفحة. ما هو اعتراضك على أوديسيوس؟

ـ إنه دائم الكذب!

ـ لا، بل يلجأ إلى الحيلة، إما هذا وإما يموت.

ـ كنت أفضِّل أن يموت.

ـ لو مات، لما كانت الأوديسة.

ـ تكفيني الإلياذة.

ـ للمرة الأخيرة، أصغِ إلي، كنتَ ذكياً جداً، والآن لا تتفوَّه إلا بالحماقات.

ـ أعتذر، أحب قصص الحروب، أكره أن أعيش الحرب لكنَّ وقْعَها جميلٌ في الأدب، الذي يتحول بانتهائها إلى قصص حب وطموح.

ـ هناك أشياء أخرى في الأوديسة غير الحب والطموح.

ـ نعم، الصقلوب، الذي أحببته كثيراً.

ـ آها، حسناً!

ـ كما أنني أرى أيضاً أن أوديسيوس أساء التصرف مع بوليفيموس.

ـ هل كنت تُفَضِّل أن يُسْلِم نفسَه للذبح مع رفاقه؟

ـ لنعترف بذلك، ولن يمنعني هذا من أن أحب بوليفيموس وأن أتألَّم من أجله. لا تقولي إن أوديسيوس أحسن التصرف مع ناوسيكا!

ـ لم يفعل لها شيئاً.

ـ تمزحين؟ وجَّه لها كلاماً جارحاً وهو يقف عارياً أمامها، هي التي لم تر شيئاً من حياتها، وعندما أنقذه والدها قام بهجرها.

ـ عليه البحث عن زوجته.

ـ حينها فقط عَنَّ له التفكير بها، بزوجته! والمسكينة ناوسيكا، ماذا سيحل بها؟

ـ لم أكن أتوقع أن تتضامن مع فتاة شابة.

ـ قولي الآن بأنني كنت همجيّاً في نظرك.

ـ أنت قارئ مثير للاهتمام، وحسبما فهمت، يجب ألا أقترح عليك إلا كتب الحروب.

ـ وأنتِ، ماذا فعلتِ في هذه الأيام الأربعة؟

ـ أنا طالبة، جُلّ وقتي مخصصٌ للدراسة، وليس في هذا ما يستحق أن يُروى.

ـ ألديكِ حبيب؟

ـ هذا لا يعنيك.

ـ أما أنا فليس لدي، ها قد أخبرتك.

ـ لن تدفعني إلى تقليدك، وإخبارك.

ـ لا تتصرفي كمعلمة، أخبرني والدي عن عمرك، أنت أكبر مني بثلاثة أعوام فقط.

ـ لم يدفع لي والدك حتى أخوض معك هذا النوع من الحديث.

ـ أأنتِ هنا من أجل المال؟

ـ أتظن أنني هنا من أجل سحرك وجاذبيتك؟

ـ يا لكِ من لئيمة!

ـ لم تحدثني عن عودة أوديسيوس إلى إيثاكا.

ـ رمية القوس، أرى أنها استعارة جنسية فظة قليلاً.

ـ في الفرنسية أكثر مما في اليونانية القديمة.

ـ هل قرأتِها باليونانية القديمة؟

ـ أنا مختصَّة بعلوم اللغات.

ـ في الواقع، عمرك ثمانون عاماً وليس تسعة عشر.

ـ تماماً. ما الذي أعجبك أيضاً في عودة أوديسيوس إلى إيثاكا؟

ـ بصراحة، لم أستمتع بهذا الفصل.

ـ لقد تعرَّف كلب أوديسيوس العجوز عليه ومات متأثراً، ألم تهتز مشاعرك؟

ـ لا، فهذا أمر غير قابل للتصديق، لأن الكلاب لا تعيش طويلاً.

ـ لا يجب أن نتوقف عند مثل تلك تفاصيل. عندما قال هوميروس إن أوديسيوس غاب في رحلته ثمانين عاماً، لم يكن ذلك سوى طريقة في الكلام.

ـ ما زلت سعيداً لأنني أنهيت قراءتها، مع حجةٍ كتلك، كنتِ قد تثيرين اشمئزازي من هوميروس لدرجة أنني قد أرفض فتح الكتاب.

ـ كتب هوميروس لأول مرة الأغاني التي تنتمي إلى التراث المنقول شفهياً. إنه وريث الشعراء ويسعى جاهداً إلى احترام رموزهم، ومن بينها المقاربة الزمنية.

ـ نستشعر في بعض الأحيان حيلاً تهدف إلى جذب انتباه المستمعين، إيقاع المتتاليات مثلاً، فكل مغامرة تستمر لعدد محدد من الأبيات، وهو الوقت الكافي لإيصال الحدث إلى الذروة، ثم يتراجع. عندها يستطيع الجمهور الذهاب إلى دورة المياه.

ضحكتُ.

ـ حسناً. إنه الطاغية بيسستراتوس الذي أمرَ بأن تُكتب الإلياذة والأوديسة، لقد كان مشروع التحرير ضخماً، ثورياً وغير مسبوقٍ، فقد جُنَّ جنون شعراء الملاحم من الفضيحة، مؤكدين أنه تمَّ تشويه أجمل عمل أدبي على مر التاريخ، مرة وإلى الأبد. الأسوأ من ذلك أنهم ربما كانوا على حق، فمن غير الممكن استبعاد فكرة أن النص فَقَدَ الكثيرَ عبر كتابته، لكننا وفي ذات الوقت كنا لنفقد أي أثرٍ له اليوم لو أنه لم يُكتب.

ـ هل قاطعهُ قرّاء ذلك العصر؟

ـ على العكس.

ـ كيف نعرف ذلك؟ هل بلغتنا إحصائيات المبيعات في القرن الخامس قبل الميلاد؟

ـ لا، لدينا دليل يكشف خلاف ذلك، فمع النشر وُلِدَ النقد الأدبي،

كان هناك ناقد اسمه زوئيل، صرَّح أن هوميروس كان يكتب مثل عامل متواضع، في النهاية قام العامة بأسره وشنقه.

ـ يا للروعة!

ـ حسناً، اقرأ فصل اللوتوفاجيين بصوت مرتفع.

ـ لِمَ هذا الفصل بالتحديد؟

ـ أحبه كثيراً.

أعطيته الكتاب مفتوحاً على الصفحة المحددة. قرأ «بي»، لا يزال بطيئاً لكنه لم يتلعثم ولا مرة.

لم تعُد تعاني من عسر القراءة. لقد انتهت مهمتي.

ذهل الصبي.

ـ لقد وظَّفني والدك من أجل علاج مشكلة عُسر القراءة لديك، وها أنت قد شفيت.

ـ أحتاجكِ من أجل الثانوية الفرنسية العامة.

ـ دعك من هذا الكلام، لستَ بحاجة إليّ على الإطلاق. لقد قرأت الإلياذة والأوديسة بموهبة استثنائية، وتحدثت عنهما بالشكل الذي لا يقوى عليه إلا قلة قليلة من القرّاء البالغين.

ـ لا الإلياذة ولا الأوديسة من ضمن برنامجي المدرسي.

ـ غير مهم، لقد تغلبت على ما هو أصعب، وأصدُقُكَ القول بأن هوميروس بالنسبة للقارئ المعاصر أصعب في الفهم من ستاندال.

ـ لا أتفق مع هذا الرأي.

ـ ليست مسألة رأي وإنما حقيقة موضوعية.

ـ حسناً فهمت، لا تريدين الاهتمام بي بعد الآن.

ـ غير صحيح، إنما أريد أن أكون صادقة، هذا كل شيء.

ـ لن تكوني غير ذلك، رجاءً، اعتني بي.

كان عنيفاً ومتوسلاً في آن واحد.

ـ لم أفهم، لقد أظهرت قلقاً كبيراً بخصوصي، فيما استغرقت أربعة أيام حتى تتصل بي عندما كان من المفترض أن أراك يومياً.

ـ المعذرة، لن يتكرر ذلك.

ـ لا داعي للاعتذار، فقد بدا موقفك منطقياً بالنسبة لي، لكنني لا أفهمك الآن، ما هي حاجتك المزعومة لي؟

ـ لقد نجحتِ في إحياء اهتمامي بالأدب.

ـ نعم، حسناً وقد تم الأمر.

ـ لا، إن رحلتِ سيتلاشى اهتمامي مجدداً.

تأملته، مرتبكة، كان ضيقه واضحاً، إنها المرة الأولى في حياتي التي أقرأ فيها، في عيون أحدهم، مدى أهميتي.

متأثرة ومتضايقة، أخبرته بأنني سأعود في اليوم التالي.

ـ شكراً. قال ذلك وغادر الغرفة على الفور.

«يا لها من عائلة مجانين» كنت أفكر وأنا أخرج، وما كدتُ أنهي فكرتي حتى اعترضني غريغوار روسير وعيونه تشع:

ـ أحسنتِ يا آنسة.

قلت لنفسي: «كنت قد نسيت هذا الأبله».

ـ لقد راوغتِ بمهارة.

ـ ما الذي تتحدث عنه؟

ـ كان ابني وقحاً بشكل لا يطاق، وقد أعدْتِهِ إلى حجمه بطريقة مثيرة للإعجاب.

ـ كان ابنك فظاً بالشكل الطبيعي الذي يتناسب وعمره، ولم أشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسي. لم يعد يعاني من عسر القراءة، ولا أرى سبباً لإصراره على حاجته إلى خدماتي.

ـ إنه مُحِقٌّ، هو غبيٌّ في اللغة الفرنسية.

ـ لكنه يُحسِن التعبير عن نفسه، ويقرأ بشكل أفضل من غالبية الناس.

ـ لأنكِ حفَّزتِه على ذلك.

ـ ولِمَ لم تُحَفِّزْهُ بنفسك؟

ـ ليس لديَّ وقت.

ـ لديك الوقت للتجسس على دروسي، لكنك لا تمتلك شيئاً منه للتحدث إلى «بي»؟

تنهَّد الرجل!

ـ لدي مشكلة في علاقتي معه.

ـ أليس هذا ما يجب أن تقلق بشأنه؟

ـ اسمعي، اقترب موعد الثانوية العامة، لنترك ما يتعلق بتحليل الجانب النفسي لوقت آخر.

ـ هل لدى ابنك مشكلة في علاقته مع أمه أيضاً؟

ـ إطلاقاً.

ـ فلماذا لا تشجعه هي إذاً؟

ضحكَ بسخرية:

ـ كيف أفسر لكِ ذلك؟ إنها ليست بالمرأة المشجعة جداً.

شعرت باحتقاره لها، وأدركت مدى كرهي لهذا النوع من الرجال. ألهذا الشعور أيّة صلة بأنه سلمني أجري، بذات اللحظة، موضوعاً في مغلف؟

ـ لقد أضفتُ أجر دروس الأيام الأربعة الماضية.

ـ اعترضت: «لا داعي لذلك».

ـ بلى، لم تستثمري هذه الساعات من مخططك الزمني، كما أن هذا الصغير الوقِح أظهر لك فظاظته.

ـ لا أرى عيباً في أنه استغرق أربعة أيام حتى يقرأ الأوديسة.

ـ كان بإمكانه الاتصال بك حتى قبل أن ينهيها. لقد كنتِ عوناً لنا أكثر مما تظنين يا آنسة.

فكرت بمفردة «لنا». غادرتُ مسرعةً، وعندما أصبحت في الشارع، أخذت نفساً عميقاً.

سبَّب لي هذا الدرس اختناقاً عميقاً لدرجة أنني شعرت بالراحة تقريباً عندما استجوبتني دونات.

ـ أحبَّ الصبي الإلياذة لدرجة أنه قرأها خلال أربعٍ وعشرين ساعة، وحدّثني عنها بطريقة مدهشة وذكيَّة جداً.

ـ ألهذا تخفضين رأسك بهذه الطريقة؟

قصصتُ عليها تتمة الأحداث. تجهَّم وجهها!

ـ يا لبشاعة هذا الأب!

ـ صحيح

ـ صيرفي، ما معنى هذا؟

ـ ألقيت نظرة على المعجم: «مختص بعمليات تبديل النقود في المصرف». أعتقد أنه يجب أن يكون هناك معنىً آخر أقل نزاهة، فهذا الرجل ثريٌّ جداً وغير نظيف. لقد أمضى خمسة عشر عاماً في جزيرة كايمان.

ـ أشم رائحة احتيال، يجب أن تنسحبي.

ـ كنت لأنسحب لولا وجود الصبي. بعد ظُهْر اليوم، عندما توسَّل إلي أن أبقى، شعرت نحوه بأسى حقيقي، لم تكن تلك نزوة طفل مدلَّل.

ـ أنتِ معجبة به، أليس كذلك؟

ـ لا.. لا، لكنه من ناحية أخرى يثير اهتمامي ويلمس شيئاً فيّ.

ـ أرى أنكِ لا زلتِ صغيرة على اختبار غريزة الأمومة نحوه.

ـ هناك روابط أخرى عدا الحب وغريزة الأمومة، فكِّري بذلك.

ـ حقاً؟ ما هي؟

ـ الصداقة، الفضول.

ـ هل الفضول رابط؟

ـ في حالتي، نعم.

منذ ذلك اليوم وأنا أذهب كل يوم من أيام الأسبوع إلى آل روسير، وبما أنني لم أعد معنيةً بعلاج عُسْر القراءة، فقد سمحت لنفسي أحياناً بأن أحدِّثه عن أشياء من هنا وهناك. الأمر الذي دفع والده إلى توجيه بعض الملاحظات لي:

ـ عندما ناقشتِه بخصوص المناطيد، لم يتبدَّ لي ذلك موضوعاً أدبياً.

ـ يمكن أن يكون للأدب علاقة بكل شيء.

ـ بالتأكيد، لكن النقطة التي كنتِ تتحدثين عنها لم تكن كذلك.

ـ ألم تقل لي إن ابنك يحتاج إلى التحفيز، ثقْ بي.

ـ أنا أثق بكِ.

ـ ولهذا تواصل التنصُّت عليّ؟

ـ أتجسَّس عليه وليس عليكِ.

ـ ما الذي تخشاه؟

ـ أن يقلِّل من احترامك.

ـ سبَقَ وتحدَّثنا بهذا الخصوص، أنا قادرة على حماية نفسي. ما يقلِّل من احترامي هو هذا التجسس.

ـ آنستي، إما هذا وإما لا شيء.

كم أكْرَه هذا الرجل! لكنني أتواصل الآن أفضل من السابق مع «بي»، وأجده شخصاً مثيراً جداً للاهتمام.

في الحقيقة لقد حدَّثَني كثيراً عن المناطيد، وعدم وجودها شِبْه التام تَرَكَهُ مهموماً:

ـ لستُ مقتنعاً بحجَّة أن المناطيد مكلفة، فالطائرات وأبحاث الفضاء وغيرها مكلفة للغاية. السبب الحقيقي وراء التخلي عنها هو ضخامة حجمها الذي يجعلها غير عملية، خصوصاً على الأرض. هل يمكنك تخيل حجم مستودع مخصَّص للمناطيد؟ تُثيرني هذه الفكرة بالتحديد، أريد رؤية أحد هؤلاء العمالقة في حظيرته.

ـ لن يكون شيئاً صعباً.

ـ لقد بحثت في الأمر، ما دامت المناطيد لم تعد تستخدم إلا في الإعلانات، فعلينا الاستعانة بوكالات الاتصالات، يا لفظاعة الأمر!

ـ إنه يحترق بسهولة، أليس كذلك؟

ـ نعم، إنها مشكلة أخرى من بين مشكلات بالتأكيد كثيرة في المنطاد: قابل للتلف، باهظ الثمن وضخم. لكنه في غاية الجمال، هذه الحيتان الطائرة، الصامتة والرشيقة. إنها المرة الأولى التي يبتكر فيها الإنسان شيئاً شاعريّاً كهذا!

ـ هل يشكل شغفك هذا جزءاً من اهتمامك بالأسلحة؟

ـ ليس كثيراً، فقد تبيَّن أن الاستخدام الحربي للمنطاد كان كارثياً. آلة في غاية الدقة لم يكن لها مكان إلا في أوقات السلم، لكن ما يحزنني هو اقتصار استخدامه في مجال الإعلان فقط. كنت أرغب بتأسيس وكالة مناطيد، والحالة المثالية، أن أقودها بنفسي وأستأجرها للقيام بالرحلات.

ـ ولِمَ لا؟

ـ أخبرني أبي أن هذا مستحيل. يبدو أن الناس في هذه الأيام لا يؤيدون فكرة وجود قنبلة من الهيدروجين تتنزه فوق رؤوسهم. كنت أتساءل عن سبب تقبل الناس لكَمٍّ من المخاطر، والتي تكون عادةً خاليةً من جمالٍ يسُرُّ النظر! كان ردُّ أبي أنني لا أمتلك أدنى معرفةٍ بالواقع.

ـ وما هو رأيك بالواقع؟

ـ يجب أن نعرف أولاً ما هو الواقع بالنسبة لأبي.

من الواضح أن كليهما كان يعاني من نقص في الواقعية. هذا ما لم أقله لـ«بي». مع ذلك بدا لي أن نقص غريغوار روسير فيها، هو أكثر خطورة نظراً لكسبه الكثير من المال، الشيء الذي يجعله يعتقد بأنه واقعي جداً لدرجة تفصله عن الواقع.

في أحد الأيام، فتحت لي الباب امرأة أنيقة، في حدود الأربعين من العمر.

ـ أخيراً التقينا (صاحت) حدَّثني ابني عنكِ كثيراً.

ـ مرحباً سيدتي.

قلت لها دون أن أتجرأ على متابعة قولي بأن ابنها لم يحدثني عنها قط.

قالت لي بأن «بي» سيصل بين لحظة وأخرى. نظرت إليها خلسةً وكلّي أملٌ ألّا يفضحني فضولي. لم تتردد في التحديق وملاحظة أدق التفاصيل في شخصي:

ـ تُعجبني تنّورتك كثيراً، أيمكنني لمسها؟ ودون أن تنتظر ردي، جلست على الأريكة بجانبي وأخذت تتحسَّس قماش ملابسي.

ـ يا له من تصميم فريد، طبعاً يجب أن تكون لي رشاقتك حتى أستطيع ارتداءها. كم وزنك يا آنسة؟

تلا ذلك سيلٌ من الأسئلة لا نهاية له، كنت أجيبها بانزعاجٍ إلى أن عرفت أخيراً أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

ـ وأنت يا سيدتي، ماهي مهنتك؟

محرجةً جداً، ابتسمت متظاهرةً بأنها تحاول التغلب على حيائها قبل أن تمضي إلى الاعتراف:

ـ أهوى جمع المقتنيات.

انتَظَرَتْ، واثقةً من سؤالي الذي لا بد منه:

ـ ماذا تجمعين؟

جرت كارول روسير للبحث عن حاسوبها المحمول، وبعد عدة نقرات، أرتني صورة زورق صغير.

ـ أتجمعين الزوارق؟

انفجرتْ ضاحكةً!

ـ أنتِ ظريفة! لا، أنا أجمع الأشياء الخزفية. هذا الزورق أحدث مقتنياتي، لقد كان ملكاً لـلودفيغ الثاني ملك بافاريا.

بدا لي أن اقتناء هذا الزورق من أقل الطرق إثارة للاهتمام في العالم للاقتراب من عهد لودفيغ. لكنني قلت شيئاً مهذباً من قبيل:

ـ إنه مُبهر!

ـ أليس كذلك؟

بشكل مستفيض، بدأت أم تلميذي باستعراض عدد هائل من صور الأكواب والصحون والأطباق وأواني الشوكولاتة وأطباق الفاكهة، التي كانت قد اشترتها من أشهر العائلات. في ربع الساعة الأول ظننت أني قد أموت، وفي الربع الثاني تمنيت لو أنني مت بالفعل.

سألتها:

ـ وأين تخزّنين هذه العجائب؟

ـ لم أفهم؟

ـ تحتاج هذه المجموعة إلى مساحة كبيرة وتتطلب عناية خاصة.

ظلت السيدة روسير في حيرة من أمرها لبرهةٍ طويلةٍ قبل أن تردَّ بحركة من يدها على الحماقات التي تفوهتُ بها:

ـ لا تعنيني هذه الاعتبارات.

ـ بالتأكيد، لديك شريك يهتم بكل هذا.

قالت وقد بدت عليها أمارات السخط:

ـ لم أفهم كلمةً واحدةً من كل ما قُلْتِه.

فجأةً أدركتُ:

ـ لم تُمْسِكي قطُّ بين يديك أيّاً من هذه الأشياء! لقد اشتريتِها عبر الإنترنت وستظلّ هناك. هذه الـ «هناك» التي ترتبط بهذه النقطة الغامضة، هي جوهر الأمر.

ـ بالطبع.

أجابتْ منزعجةً لأنني ولمدة دقيقة فقط اعتقدت شيئاً آخر غير هذا.

ـ أتعتقدين أنَّ كل هواة الجمع يفعلون مثلك حالياً؟

نظرتْ إلي بذعر، وكأنها تتساءل لماذا أهتم بإثارة أسئلة غبية كهذه، ثم تنهَّدت:

ـ ربما.

ـ إنه أمرٌ يثير العجب! كيف أن التعرف على العالم أصبح صعباً بسبب

الإنترنت. في السابق كان هاوي الجمع مهووساً بالحفاظ على كنوزه بمقدار من الحيطة يقارب الجنون، أما الآن فهو راضٍ بامتلاك صور هذه الكنوز على الإنترنت.

ـ إلى من تتحدثين؟

ـ إلى نفسي، كنت أتساءل إن كان هذا تقدماً.

ـ سأخبر ولدي بوصولك. مكتبة سُر مَن قرأ

قالت ذلك وهي تنهض، مسرورةً لأنها وجدت عذراً لترك شخص على هذا القدر من التناقض. قبل نصف ساعة أخبرتني أن «بي» سيكون هنا بين دقيقة وأخرى. في الحقيقة لو كانت كارول روسير قد وجدتني شخصاً مناسباً لاستضافتني، ولما كانت لتُبْلِغ الصبي بقدومي.

عندما انضم إلينا، كان يبدو محرجاً كمن تم كشف سِرِّه المخزي للتو.

ـ قابلتِ أمي.

أومأتُ برأسي.

ـ أنا آسف، أعتقد أنها كانت تريد بشدة التعرف عليكِ.

ـ أمر طبيعي.

ـ ما رأيك بها؟

ـ كيف يمكن أن أمتلك رأياً عنها في وقت قصير للغاية؟

ـ أنتِ تكذبين، من باب الكياسة. أمي حمقاء.

ـ لا تقل ذلك.

ـ لماذا؟ أمن المعيب أن أقول ذلك؟

ـ بالفعل.

ـ سحقاً. أنا بحاجة لأن أقول لك هذا: أمي حمقاء. كما ترين، والدي ليس غبياً، لكنني أحتقره ولا يمكننا التحدث معاً من دون أن يعلو صراخنا. أمي ليست سيئة، لكن ما الذي أستطيع أن أخبر به امرأة بهذا الغباء؟ كان عمري ثماني سنوات عندما عرفت أنها بلهاء، واثنتي عشرة سنة عندما اكتشفت أن والدي كان رجلاً قذراً.

شعرتُ بالحرج الشديد من فكرة أن الرجل القذر الذي نتحدث عنه يستمع إلينا. حاولت تغيير مسار الموضوع:

ـ ألديك أصدقاء؟

ـ في بروكسل؟ أنا هنا منذ شهرين فقط.

ـ ربما هي مدة كافية.

ـ من الواضح أنها ليست كافية في حالتي.

ـ وفي السابق، أكان لديك أصدقاء؟

هزّ كتفيه:

ـ هذا ما كنت أظنه، لكن عندما نكتشف بعد شهرين من الفراق، أنه لم يتبقَّ شيء تقريباً من صداقة امتدت لعشر سنوات، فمن الطبيعي أن نشكَّ بذلك. باختصار أنا وحيد، ومن أجل هذا أيضاً أنا متمسِّك بالرابط الذي يجمعنا. هل يمكن أن ندعوه صداقة؟

ـ أجبتُ بحذرٍ حسب تقديري: «مما لا شك فيه أننا غير ملزَمَيْن بالبحث عن توصيف».

ـ كان لدينا واجب مدرسي حول «الأحمر والأسود». تحصلتُ على أفضل علامة (19\20). لقد كان على هيئة سؤال غبيّ، توجَّب علينا أن نعطي رأينا بهذا الكتاب. تذكرت النظرية التي قلتِها مرة بأن كل رواية هي إما إلياذة وإما أوديسة. وشرحت بأن كتاب ستاندال كان أوديسة: جوليان هو أوديسيوس، السيدة رينال هي بينيلوب، ماتيلدا هي سيرسي... إلخ.

ـ أحسنت!

ـ كل هذا بفضلك، من دونك لم أكن لأحلم بالحصول على علامة كهذه.

ـ لقد تمكَّنت من استيعاب ما قلته لك والاستفادة منه. لا تقلل من قدراتك، أنت ذكي جداً.

صمت وأخفض رأسه متأثراً.

ـ أخبرني والدي أيضاً أنني كنت ذكياً، وأضاف أن هذا الذكاء لن ينفعني بشيء.

ـ كان حتماً يقصد أنه لا ينبغي على المرء أن يكوِّن مفهوماً نفعياً عن الذكاء.

ـ أتعتقدين ذلك؟ رأي كهذا لا يشبه والدي أبداً.

كنت أعاني من فكرة أن عليَّ الدفاع عن نذلٍ ربما يسمعنا الآن.

قال:

ـ علينا أن نقرأ كافكا: رواية «المسخ».

تجنبت الإفصاح عن مقدار حبي لهذا الكتاب، واستأذنت بالمغادرة.

احتجَّ «بي»:

ـ بالكاد بدأ درسنا.

ـ لم يمنعك أحد من الانضمام إليَّ في الوقت المحدد.

بالطبع، وكالعادة، كان على غريغوار روسير أن يعترضني.

ـ أهنِّئك، خصوصاً على النهاية. هؤلاء الشبان عاجزون عن الالتزام بالوقت.

ـ أنا شابَّة ودقيقة في مواعيدي.

ـ نعم إنما أنتِ...

كم من مرةٍ قيلَتْ هذه العبارة في وجهي؟ سواء من فم والديَّ أو من رفاقي. «نعم، إنما أنتِ...» لم أطلب قطُّ توضيحاً حول هذا التعليق البغيض المتناقض.

ـ أنا آسف لأن زوجتي أمسكت بكِ.

ـ أتتنصَّت علينا أيضاً؟ ممن تخاف في هذه الحالة؟

ـ كنت مذهولاً، لأنني لم أتوقع ذلك مطلقاً.

ـ بالعكس، من الطبيعي أن أقابل أم تلميذي.

ـ اعترفي أنها شخصية فريدة.

قال ذلك ساخراً وهو يسلمني أجري.

ـ لا يقذف الآخرين بالحجارة، من كان بيته من زجاج!

كنت أتطلع إلى اليوم التالي بفارغ الصبر، لم أكفّ عن تخيُّل ردة فعل «بي» بعد قراءة رواية «المسخ».

كنت قد اكتشفتها بنشوة غامرة في الخامسة عشرة من عمري.

«كل فترة مراهقة عبارة عن نسخة معدَّلة من هذا النص»، فكرت. فتبادرت إلى عقلي عدة أمثلة مضادة، فقد عرفتُ فتياناً وفتيات عاشوا سِنيّ مراهقتهم ببهجةٍ: جميلين، متألقين، في حالة نفيٍ لتبعات هذا العمر الجاحد.

عند التمعُّن بالأمر، لم تكن قضيتهم تعني شيئاً: إنها مجرد إحصائية كارثية. ذكَّروني بهؤلاء الناجين من معركة «la Somme»، لقد كان سن البلوغ نكتةً داروينيةً مبالغاً بها. ربما كان خطأً تطوريّاً، تماماً مثل قابلية التهاب الزائدة الدودية.

وفيما أنا أحاول تفسير حالتي هذه، قاطعني صوت داخلي: «كفي عن الاعتقاد بأنكِ نجوتِ. فما الذي بقيَ مشتركاً بين الطفلة الرائعة التي كنتِها والشابة الشريرة التي أصبحتِ عليها؟»

مرةً أخرى، مقارنةً بـ«بي» شعرت بقيمة امتيازي، كان لدي والدين صالحين، ليسا فاسدين ولا مغفلين. لم يتخلل مرحلة نموي أيّ فواجع، ولم تكن مأساتي سوى تجربة عامة. ولكن التعويذة كانت قد تلاشت فجأةً من رأسي، وهذا ما يحدث في لحظة لمن هم في الثالثة عشرة من العمر.

أذكر أنني حاولت استعادة ذاك السحر ثم تخلَّيت عنه بعد دقائق قليلة: «لا فائدة من ذلك، فليست سوى محاكاة». لقد عشت سحراً لما يقارب الثلاثة عشر عاماً، تبدَّدَ بلا أدنى جهد، ولا يمكن التقاطه مجدداً.

كانت أيضاً قراءة «المسخ» في الخامسة عشرة كالوحي. الاستيقاظ صباحاً على هيئة صرصار عملاق: إنها هكذا بالضبط. كانت المراهقة خدعة في الروايات الأخرى، ليست سوى إشارة للناجين من معركة

«la Somme». لم يتجرأ أحد قبل كافكا على القول بأن سن البلوغ عبارة عن مذبحة.

كانت مراهقة «بي» كابوساً في نظري: لم أكن أستطيع مقارنتها بمراهقتي، ولم تكن بيننا قواسم مشتركة، لكنه حتماً سيتعرَّف على نفسه في شخصية «غريغور سامسا Samsa».

كانت دونات شديدة الفضول بخصوص عائلة روسير، استجوبتني بلا كللٍ عندما أخبرتُها أنني التقيت السيدة الأم، وانفجرت ضاحكةً على كل إجابة من إجاباتي. لم أخبرها عن خطبة البيت الزجاجي والحجارة، رغم أن ذلك كان ضرورياً.

ـ أخطأتُ عندما قرأت كلمة الغلاف في البداية، كدت أترك الكتاب لدى إدراكي أن اسم الكاتب هو غريغوار، فأنا شديد الحساسية تجاه أبي لدرجة أن مصادفة بسيطة تتعلق باسمه أزعجتني.

ـ اسمه غريغور وليس غريغوار.

ـ لقد ترجموا اسمه الأول في النسخة التي لديّ إلى غريغوار. باختصار، قرأت الكتاب في جلسة واحدة: فمن غير الممكن أن أفعل خلاف ذلك.

ـ أتفق معك.

ـ لا يوجد ما هو أكثر صدقاً من هذا النص. لم أتوقف عن التكلم مع نفسي: «إنها هكذا، تماماً هكذا». هل تفاعل كل من قرأها بهذه الطريقة؟

ـ جميعهم، لا أعلم، أما أنا فقد تفاعلت مثلك.

ـ حتى أنتِ على الرغم من كونك فتاة؟

قلت وأنا أضحك: «بالطبع».

ـ لا تُسيئي فهمي. المرأة الوحيدة التي أعرفها هي أمي، وكوني على ثقة بأنني لم أرها يوماً تمثِّل بنات جنسها.

ـ تختلف مرحلة المراهقة لدى الفتيات عن نظيرتها عند الفتيان، لكنها وفي أقل تقدير عنيفة أيضاً، إن لم تكن أكثر عنفاً.

ـ لماذا تخبريني بذلك؟

ـ لأنك قرأت «المسخ» مؤخراً.

ـ وإن يكن؟ فالكتاب لا يتحدث عن المراهقة.

ـ حقاً؟

ـ إنه كتاب حول المصير المُقدَّر على الفرد اليوم. تأويلك غاية في التفاؤل، الاختباء متخفياً مثل حشرة جريحة، خوفاً من أول مفترس قادم، ما يعني بشكل أو بآخر خوفاً من العالم أجمع تقريباً، ليس هذا بكتاب للمراهقين.

ـ وماذا تعرف عن ذلك يا «بي»؟

ـ ما الذي تعرفينه أنت يا آنج؟ ما تزالين مراهقة في التاسعة عشرة.

ـ مذ بلغت الثامنة عشرة وأنا راشدة.

ـ أتظنين أنك بالغة في نظر الآخرين؟

ـ أكتفي بتقديري أنا.

ـ مضحكةٌ أنتِ. حسناً، على اعتبار أنك بالغةٌ الآن، هل تغيَّرت أحوالُكِ نحو الأفضل؟

ـ لسنا هنا من أجل الحديث عني.

ـ بالفعل، إنه عذر مناسب. أنا على ثقة بأنك تعانين الآن كما كنتِ تعانين منذ ثلاثة أعوام.

ـ بل مفعمة بالحياة.

ـ هذا رد مناسب على سؤالي عن أحوالك. لقد اخترت الحياة، ولست واثقاً من أنني سأفعل مثلك. لا يعني هذا أنَّ لدي ميولاً انتحارية، فما جدوى اللجوء إلى بطولة عديمة الفائدة كهذه؟ لن أغدو، في ثلاث سنوات، طالباً لامعاً وقادراً على إعطاء دروس حول أي شيءٍ كان لصعلوك من أبناء جنسي.

ـ لا تعلم شيئاً عن ذلك.

ـ أوقفي هذه المهزلة أرجوك، إنها تثير أعصابي.

ـ من قال لك بأنني لم أكن في منتهى السوء في السادسة عشرة؟

ـ لا تبتعدي عن الموضوع، ما يُعجبني في «المسخ»، أن اللعنة التي حلَّت بغريغوار ليست مؤقتة، لم يقل له أحد «ستكون على ما يرام»، وفي الواقع لن يكون كذلك.

ـ إنَّ الأمر خاصٌّ بحالته.

ـ وفي حالتك، أستكونين على ما يُرام؟

ـ للمرة الثانية، لا يتعلَّق الأمر بي.

ـ التهرب بهذه الطريقة أمر سهل. كتب كافكا هذه الرواية في العام 1915، في أثناء الحرب المروعة التي صاحبت بداية القرن العشرين. ومن الآن فصاعداً، أصبح المصير المحتوم للكائنات الحية كالتالي: إن كل من ينجو ينظر إليه على أنه ثائر يجب إسكاته. هو المصير الذي يمثِّل القرن العشرين.. بداية احتضار الكوكب.

ـ ألست مبالغاً قليلاً؟

ـ لا أعتقد. أنت تهتمين بي، وأنا مدين لك بالامتنان، فهو يعني لي الكثير، ومع ذلك أرى أن الأمر يتعلَّق بكِ وليس بي.

ـ أتنوي معالجتي؟

ـ قطعاً لا. فمرضُكِ مفيد لك، أوهامك هذه تجعلك فاتنة جداً.

ابتسمت.

ـ قرأت أن كافكا كان في حالة صراع دائم مع والده. (استدرك قائلاً) لهذا أيضاً نرى فيه الناطق الرسمي باسم المراهقة.

ـ أنا مشمولة بهذه الـ «نحن».

تجاهل تعليقي وأردف:

ـ لا يقتصر رفض الأب على مرحلة المراهقة فقط. ليست الأبوة هي ما أكْرَهُ في والدي، وإنما المصير الذي يُقدِّمه لي: فمنذ بداية القرن العشرين كان الموت هو الإرث الذي تركه لنا الجيل السابق، ليس الموت الفوري، وإنما العذاب الطويل كحال الصرصار الجريح قبل أن يُسْحَق.

ـ إن كانت تلك خطة والدك من أجلك، فلماذا قام بتوظيفي؟

ـ لأنه أحمق.

قلتُ ضاحكةً:

ـ لديك جواب لكل شيء.

ـ أهذا أمر سيئ؟

ـ إنه يُظهِر حدودك. فيصبح المنطق غير القابل للدحض باطلاً، إن

تعريف الحماقة هو: الانغلاق على الذات.

ـ أأنا أحمق؟

ـ حسب دوستويفسكي، نعم.

ـ سأكون مسروراً بذلك.

ـ عظيم، ستقرأ «الأبله».

ـ ماذا؟ هل انتهينا من كافكا؟

ـ بدايتنا مع دوستويفسكي هي البرهان بأننا لم ننتهِ.

ـ لكنه خارج برنامجي المدرسي.

ـ لم نعد ملزَمين بالبرنامج.

ـ لكنني حتى الآن لم أنجح في جعلك تغيرين رأيك حول «المسخ».

ـ لقد تحدثت بشكل مثير للإعجاب عن كافكا، رأيك كان ملفتاً وهذا جلّ ما يعنيني.

نهضت.

ـ أتغادرين الآن؟ بالكاد بدأ الدرس.

ـ وهل أنت متأكد من أن الوقتَ هو معيارُ درسنا؟

ـ إن كنتِ ترغبين بالمغادرة، فلن أمنَعَكِ. لكن رغبتك بذلك تحزنني، لا يروقك أن يختلف الناس معك في الرأي. أليس كذلك؟

ـ غير صحيح، سأخبرك بشيء مرةً واحدةً وأخيرةً. لا يتعلق الأدب بفن

التوافق بين آراء الناس، عندما أسمع القرّاء يقولون: «تعجبني رواية مدام بوفاري» أتنهَّد بيأس.

ـ لم أقل شيئاً بهذا الغباء ومع ذلك ستغادرين. لكن قبل ذلك أخبريني لماذا كان كافكا يكره والده.

ـ يمكنك الوصول إلى الإجابة بسهولة، فما عليك إلا قراءة عمله.

ـ أودُّ أن تخبريني أنتِ بذلك.

ـ كان والده يمثِّل سلطةَ رب الأسرة، كان وضيعاً، مشبعاً بامتيازات الأبوة المثيرة للشفقة.

ـ وهل صدر منه أي سلوك سيئ تجاه ابنه؟

ـ لا، عندما نكره أحداً، فكل سلوك يصدر عنه يصبح غير محتمل. يذكر كافكا باستياءٍ كبيرٍ أن والده وحده من كان يمتلك الحق بتذوق الخل على المائدة، هذا الاستبداد الخفيف بحدِّ ذاته، يتَّخِذ قيمة الجريمة عبر قلم كافكا.

ـ هل تكرهين أباكِ؟

ـ لا، بل أحبُّه كثيراً.

ـ وأمك؟

ـ أحبها بشدة.

ـ لا أستطيع تخيُّل معنى أن يحب المرء والديه.

ـ ربما أحببتَ أمَّك عندما كنت صغيراً جداً.

ـ صحيح، لقد أحببتها إلى أن أدركت مدى حماقتها. كانت تخاف حدَّ الهوس من إصابتي بالإمساك. عذراً على التفاصيل. باختصار، عندما كنت في السادسة كانت تريد أن أكتب على اللوح حرف (أ) عندما أنجز أمراً ما، وحرف (ب) عندما لا أفعل. قلت لها ذات مرة: يكفي أن أكتب (أ) أو لا أكتب شيئاً. وبما أنها لم تستوعب، شرحتُ: «الفرق بين (1) و (0) هو ذات الفرق بين (1) و (2)». فأجابت: «حبيبي المسكين، أنت أكثر سوءاً مني في الحساب».

ـ أكان ذلك محبِطاً، لذلك توقَّفْتَ عن حبِّها؟

ـ من الصعب أن نحب أحداً نحتقره.

بدا لي أنه الوقت المناسب للمغادرة، كان «بي» محرَجاً فلم يحاول منعي.

عندما اعترضني والده معتذراً عن الأسرار التي كان ينتهكها، أخبرته أن ابنه بحاجة لمساعدة نفسية.

قال معترضاً:

ـ لكنه ليس مريضاً!

ـ لا، إنها أزمة.

«قد تكون الحالة أفضل مما أعتقد». فكَّرت.

ـ هذا ليس من شأنك يا آنسة، لن أعيد على مسمعه ما قلتِ حتى لا يغضب منكِ.

ـ وهل تنتظر مني أن أشكرك؟

قلت وأنا أخذ المغلف الذي يحوي أجري.

ـ أشعر بأنني معالجته النفسية، وهذا الأمر لا يناسبني.

ـ ارفضي واتركي الموضوع.

ـ إن لم أذهب، من سيفعل؟

ـ يمكن استبدال أي شخص بكِ.

دونات على حق، وكانت تعلم أنني أدرك ذلك.

ـ لقد أصبحتِ أكثر قرباً مني منذ بدأتِ تهتمّين به. (أضافت) كما لو أنكِ بحاجة لشخصٍ متوازنٍ تتحدَّثين إليه.

«متوازن؟ هي؟» لم أجِبْ بشيء، لأنها كانت تقول الحقيقة: لقد تقرَّبت منها، بِتُّ أشعر بالضيق، كان عليَّ أن أعترض، بقولي إن لديَّ علاقات أخرى. لكن يا للأسف فأنا لم أزل غير مرئية في الجامعة.

في اليوم التالي، في أثناء الدرس سأل أستاذ علم الأساطير المقارن عن أصل اسم ديونيسوس:

ـ توقَّعَت: «المولود مرتين؟».

صرخ أحدهم في المدرج، لم أكن أعلم أنه يكرهني:

ـ حمقاء! يا لها من حمقاء!

انفجر بقية الطلاب ضاحكين. امتقع وجهي، لكن الأستاذ وبعد أن ساد الصمت مجدداً قال:

ـ الجواب غير صحيح، لكنه مثير للاهتمام. ديونيسوس تعني المولود من زيوس.

في الحقيقة، أخطأت عندما ظننتُ أنني غير مرئية، فقد كانوا يكرهونني، على الأقل كان ذاك الفتى الذي صرخ يكرهني. إنه ريجيس فارموس، كان ثرثاراً، لم أتوجَّه إليه يوماً بكلمة، والعكس صحيح. أما بالنسبة للطلاب الآخرين فعلى الأرجح أنهم لم يكونوا قد رأوني حتى هذه اللحظة، لكنهم ومن الآن فصاعداً سيتبعون صوت زعيمهم.

فارموس هو مغوي فتيات الصف، الواثق من جماله، ينضح بثقة استثنائية، يفتن الرجال كما النساء، دون أن أعرف إلى أين تصل تلك العلاقات. كان أستاذ مذهب التراجيديا متيَّماً به، بالإضافة إلى معظم فتيات قسم فِقْه اللغة. علاوة على كل ذلك، لم أفهم قطُّ لماذا اختار دراسة هذا الفرع: فقد كان الطموح ينهَشُه حتى يصبح مخرجاً في هوليوود.

بعد نهاية الدرس، بقيتُ جالسةً حتى خرج جميع الطلاب، بحيث لا أصادف أحداً. وعندما فرغ المدرج غادرته. المفاجأة غير السارَّة كانت عندما لاحظت أن أستاذ علم الأساطير المقارن كان ينتظرني. دعاني إلى شرب كأس، ولشدة صدمتي أضعت بوصلة رد الفعل وكيفية التصرف، قبلت.

لحسن الحظ أنه اصطحبني إلى مقهى خارج الجامعة، ما يعني بأننا لن نصادف من يعرفنا. طلبت شاياً بينما اختار القهوة الآيرلندية.

بدأ حديثه:

ـ حسناً يا آنج، هل يكرهونَكِ؟

ـ كنت أجهل ذلك، لكنني مثلك أدركته للتَّو.

ـ لا، كنت أعلم منذ وقت طويل.

ـ كيف؟

ـ دائماً ما كنت أراكِ وحيدةً في ركنك.

ـ هذا لا يعني أنهم يكرهونني.

ـ لا، إنه أمر واضح، لكن لماذا؟

ـ ليست لدي أدنى فكرة.

ـ ربما لأنك لم تحاولي التقرب من الآخرين.

ـ غير صحيح، حاولت عديداً من المرات التودد إلى ذاك أو تلك.

ـ ولِمَ لم ينجح الأمر برأيك؟

ـ لا أعلم. إلى اليوم كنت أعتقد أنني غير مرئية، لكن وبالنظر إلى سلوك ريجيس فارموس، فهمت أنني لم أكن كذلك.

ـ شعرتِ الآن بحالٍ أفضل، أليس كذلك؟

ـ لا، كنت أفضِّل ألا يلحظوا وجودي.

ـ أما أنا فقد تبيَّنت حضورك على الفور.

لم أكن حمقاء بما فيه الكفاية كي أسأله عن السبب.

عندما أدرك أنني قد لا أطرح عليه هذا السؤال، تابع:

ـ أنت تشبهين الشابات في أفلام إيريك رومير.

شعرت بالحرج، إنها المرة الأولى التي أحظى فيها بتودد رجل مُسِنّ.

ـ لم تشاهدي أحد أفلامه، أليس كذلك؟ كان لديه موهبة اختيار الممثلات الشابات الرشيقات، غير النمطيات واللامعاصرات.

بدأت أشعر بوجنتيّ تحترقان، كدت أصفع نفسي، وودت لو أصفع الأستاذ أيضاً.

ـ اسمكِ آنج، إنه اسمٌ ساحرٌ ويليق بك، لقد خاطر والداكِ: إنَّ منْحَ اسمٍ كهذا لفتاةٍ قد يشير إلى حدَّة شقاوتها، ومن شأنه أن يحبطها، أما في حالتك فهذا يسلِّط الضوء على جمالك.

إن كل ما تمكَّنت من التفكير به هو أنني عندما كنت أتحدث إلى «بي»، كنت أستخدم اسم الإشارة «ذلك»، أما عندما اتخذتُ دور الطالبة، قلت فلأستخدم «هذا». إنها «لهجة التدريس».

ـ لِمَ اختار لك أهلك هذا الاسم؟

ـ إنه أفضل من ماري ـ آنج.

انتهت به إجابتي المربكة إلى الانفجار ضاحكاً، ومحاولة استيضاح الأمر:

ـ هل أطلقوا عليك اسم آنج لأنه أفضل من ماري ـ آنج؟ هل حقاً هذا ما أخبروكِ به؟

ـ لا، لقد أرادوا لي اسماً يصلح لكلا الجنسين.

ـ هذا لا يفسِّر شيئاً. توجد العديد من الأسماء المخنثة، أعرف عمَّا أتكلم، أنا أُدْعَى دومينيك.

انتهى الأمر، لقد أخبرني باسمه. لو كان لدي أصدقاء، لكنت عرفت أن هذا الأستاذ لديه باعٌ في المغازلة. أعتقد بأنني قد وقعت في الفخ، كان هذا اليوم أشبه بكابوس، لهذا السبب أفصحت عن هذه الكلمات الانتحارية:

ـ إن مغازلة طالبة هو شأن يخلو من الشرف، إنه استغلالٌ حيث لا يمكنها التنصُّل من كونها تعيش خوفاً شديداً من علامة سيئة، بل إن الأسوأ من ذلك أن تغازلها وهي خارجة للتو من إهانة علنيَّة، أي أن تستغل لحظة ضعفها.

ـ لِمَ تقولين هذا؟

ـ لأنني أعنيه.

ـ في هذه الحالة، أنتِ على حق، واسمحي لي أن أخبرك كم أنتِ مخطئة، فأنا لا أغازلك.

ـ ماذا تسمي هذا إذن؟

ـ أنا أحبك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يوجِّه لي فيها شخصٌ ما اعترافاً كهذا.

ـ من العبث أن تقول هذا لطالبة.

ـ إلا إن كان صحيحاً.

ـ لا بد وأن لديك خبرة كبيرة في هذا المجال.

ـ ليس لديَّ أيّ تجربة، يمكن الشعور بهذا، أليس كذلك؟ أنا سخيف.

ـ السخيف هو ادِّعاء حبِّ شخص لا تعرفه.

ـ صحيح أنني لا أعرفك بدقة، لكنني ومنذ أيلول أراقبك حدَّ معرفتي بعض الأشياء التي تلامسني عنك.

ـ كأن أعاملك كحمقاء في الدرس، على سبيل المثال؟

ـ هذا ما اكتشفته معك في الوقت ذاته، وهذا ما جعلني أستشيط غضباً، لكنه ما سمح لي في الوقت ذاته أن أقترب منك.

ـ كم عمرك؟

ـ خمسون عاماً.

ـ أنتَ أكبر من والدي بالطبع. اسمع، يكفي هذا اليوم، يجب أن أذهب.

ـ هل تعدِيني أن تفكِّري بالأمر؟

ـ بماذا؟

ـ بنا.

اتسعت حدقتاي.

ـ أتنتظر أن يكون لحديثك هذا بقية؟

نهضت وخرجت. أمشي في الشارع وأنا أفكر في «بي». لم تشعر دونات أنَّ من السخف الوقوع في حبه، ومع ذلك كنت أعرف أنه ما من مشاعر كهذه بيننا. كيف يمكنني إثبات ذلك؟

عدت أدراجي. كان أستاذ علم الأساطير المقارن ما زال جالساً مطأطأ الرأس، لم يكن يعلم أنني أراه. كان يمسك رأسه بكلتا يديه خجلاً، ماذا كان اسمه؟!

ـ دومينيك؟

قفز من مكانه منذهلاً ونظر إليَّ بذعر لم يُثِرْ استيائي، اقتربت منه ودون أن أجلس، طبعت قبلةً على شفتيه.

ـ لماذا؟

ـ طلبت مني أن أفكر، وقد فكرت.

ـ فكرتِ بسرعة.

ابتسمت.

ـ إنها المرة الأولى التي أراكِ فيها تبتسمين. أنتِ جميلة.

ـ لنذهب.

ـ إلى أين؟

ـ لا أعلم، لن نبقى هنا.

أدهشتني طرقي الخاصة.

ـ يمكننا الذهاب إلى منزلك، (قلت). لكن زوجتك تنتظرك، هذا تصرف قاسٍ.

ـ أنا منفصل، وأعيش وحدي.

ـ ألديك أطفال؟

ـ لا، وأنتِ؟

استمتعتُ بهذا السؤال.

ـ لا، (قلت هذا وأضفت) لديَّ طالب عليَّ أن ألتقيه.

ـ طالب ماذا؟

شرحت له باختصار.

ـ كم عمره؟

ـ ستة عشر عاماً.

قرأت القلق في نظرته.

ـ متى سأراكِ مرة أخرى؟

اقترحت:

ـ غداً مساءً.

حددنا موعداً، قفزت إلى القطار فيما بقيَ المعلِّم ينظر نحوي حتى اختفيت عن ناظريه.

ـ أنتِ غريبة اليوم.

استشعر «بي».

ـ أنتَ غريب دوماً.

ـ على الأقل إنها طبيعتي اليومية.

ـ لسنا هنا لنتحدث عني.

ـ قمت البارحة بفعل شيء لا يعقل، لقد قرأت كتاباً بمبادرة خاصة مني.

ـ أحسنتَ! احكِ لي.

ـ رواية «الشيطان في الجسد» لريموند راديغيت.

ـ لقد اخترت تحفةً فنيةً أيضاً. أنا فخورة بك.

ـ إنها قصة فتى في السادسة عشرة من العمر ينام مع شابة في التاسعة عشرة من العمر.

ـ أنا على علم بمجرياتها، هل أعجبتك؟

ـ كثيراً، أحب كتابة الحب بهذا الأسلوب، من دون ركاكة سخيفة.

ـ معك حق.

ـ ثم إنها أشبه بقصتنا، كانا في نفس عمرينا.

ـ عدا ذلك نحن لا نشبههما بشيء.

ـ نعم في الحقيقة، نحن لا ننام معاً، أتنامين مع شخصٍ ما؟

ـ لا أجيب على هذا النوع من الأسئلة.

ـ أنا لم أنم مع إحداهن على الإطلاق.

ـ ألأنك قرأت للتو «الشيطان في الجسد» فهذا كل ما تفكر فيه؟

ـ أنا أفكر في هذا ليلاً ونهاراً.

ـ هذا طبيعي في عمرك.

ـ توقَّفي عن اتخاذ هيئة التعالي، أنتِ تفكرين في ذلك أيضاً.

ـ لقد بدأ الحديث هنا بالتدهور، فيما كنتَ قد ابتدأتَ هذه المحادثة بطريقة جيدة، لقد قرأتَ «الشيطان في الجسد».

ـ لا أجد الأمر بهذا الشكل، إن روايةً تولد فيك رغبةً بالتحدث عن الجنس، لشيء رائع.

ـ برأيي، ليس على حديثك أن يقتصر على ذلك.

ـ حسناً، أنذهب إلى غرفتي، ففي النهاية أنت معلمتي، علميني.

ـ أنا أستاذتك في الأدب.

ـ علميني بأدب.

ضحكت.

ـ ألا يوجد فتياتٌ في مدرستِك؟

ـ ليتكِ ترينَهم!

ـ بربك، افتح عينيك، أنا متأكدة أن بعضهن ساحرات.

ـ لا أرغب بجائزة ترضية.

ـ جيد، أظنك بحاجةٍ إلى نزهةٍ، قلت بأنك مهتم بمناطيد زيبلان، ماذا إن ذهبنا إلى المتحف الجوي؟

ـ أيعقل أن يكون هناك متحف جوي في عاصمة بلد صغير كبلدك؟ سأبحث على الإنترنت.

ـ لا، دعنا نرَها على أرض الواقع!

نهضت، تبعني الشاب بنزق. مبتهجةً بالفكرة التي لا بد وأن الأب سيلتقطها من برج المراقبة الخاص به.

ـ هل هو بعيد عن هنا؟

ـ إنه في حديقة «اليوبيل»، سنستقل القطار.

يبدو جلياً أنَّ «بي» لم يصعد القطار من قبل، بدا مرعوباً كما لو أنني قبلت عرضه الجنسي، فدفعت عنه.

ـ كيف تذهب إلى المدرسة كل يوم؟

ـ سائق والدي يوصلني بالسيارة الفيراري.

جلست بجانبه، وكان ينظر من النافذة بارتياب.

ـ بروكسل مدينة جميلة، ومن الملفت للنظر أنها تحتاج إلى طقس مميز كي يُظْهِر غرابتَها.

ـ لِمَ تقولين هذا؟

ـ لأن كل منازلها تقريباً ذات تعرُّض مزدوج للشمس، عندما يكون الجو مشمساً، يمر الضوء عبر المنازل، حينها تبدو بروكسل كأنها مبنيّةٌ من الأشعة.

ـ هل سافرت؟

ـ ليس كثيراً، أقل منك.

ـ أنا لم أسافر، غالباً ما كان يتم نقلي إلى أماكن لم أعرفها من قبل.

ـ هذا سبب إضافي كي تكتشف بروكسل.

بعد عدة محطات، وصلنا إلى حديقة اليوبيل، بدا «بي» مذهولاً من عملقة الأبنية. في المتحف الجوي سألت إن كانت هناك مناطيد زيبلن، فأشاروا إليَّ بوجود حجرتين لطائرة الكنة.

فخورةٌ جداً بنفسي، نقلت الخبر للفتى الذي هزَّ كتفيه.

ـ كما لو أنني كنت أود رؤية سيارة رولز رايز. وأنت تقول لي: «مقصورتان للركاب!».

ـ هذا أفضل من لا شيء.

ـ ثم إنه متحف عسكري، وليس متحفاً جوياً.

ـ هذا يجب أن يسعدك، فأنت شغوف بالجيش.

أثارت الحجرات إعجابي، كانت مصممة بشكل رائع، أشبه بصناديق الموسيقى.

ـ كيف سيكون ردّ فعلك لو أنك تمكَّنت من رؤية مناطيد الزيبلن كاملة؟

غمغم بي.

رغم هيئته المتراخية، رأيته يتأمل الحجرات بتأثر بالغ. كنت أتخيله يترأس قيادة أحدها، لا بد وأنه كان يفكر بذات الشيء أيضاً، فقد استحوذت عليه الحماسة وامتعض حينما رنَّ جرس الإغلاق. واستخلصت أنه استمتع بالزيارة، قفزنا إلى القطار لنعود إلى منزله.

ـ أنتِ مختلفةٌ اليوم.

ـ هذا لأنك وللمرة الأولى تراني في الخارج.

ـ لا، كنتِ مختلفةً عن لحظة وصولك.

لم أعلق.

في اليوم التالي، اعترضني غريغوار روسير، حال دخولي، وفي مكتبه لمْ يدْعُني للجلوس.

ـ هل يمكنكِ أن تشرحي لي ما الذي حدث بالأمس؟

ـ ما من شيء يمكن شرحه. ذهبت أنا وابنك إلى المتحف.

ـ أنا لا أدفع لك كي تجعلي ابني يرى مناطيد الزيبلن.

ـ أعلم. أما فيما يتعلق بالأدب، فعليك أن تعجب بنجاحي: لقد بات «بي» يقرأ روائع الأدب، من تلقاء ذاته، فها أنا أنهي عملي.

ـ لا! أنتِ تعلمين أن «بي» لا يمكنه الاستغناء عنك.

ـ لا أعلم، على الإطلاق.

ـ أنتِ الفتاة الوحيدة التي قابلها في حياته.

ـ توقَّف، أعتقد أنني سمعت ذلك من قبل.

ما أطلبه منك هو عدم مغادرة المنزل في أثناء الدروس.

ـ ما لا تستطيع تحمُّله هو أنني البارحة قمت بسرقة ابنك من رقابتك لساعتين. ما الذي تفعله عندما يكون في المدرسة؟

ـ لا شيء لأراه، هل تعتقدين بأنني ولِدْتُ البارحة؟ أنتِ اصطحبتِ ابني بالقطار ـ قطار اسمه الرغبة. لأجل الذهاب إلى المتحف الجوي، هل فعلتِ ذلك لتعليمه الاستعارة أو التشبيه؟

ـ يا لكَ من مختل، لا يمكنني البقاء في هذا المنزل.

حدث أن دخل «بي» إلى المكتب في هذه الأثناء.

ـ أعتقد أنني قد سمعت صوتك.

ـ كيف سمحت لنفسك أن تدخل من دون أن تطرق الباب.

ـ أنا آتية، بي. كان والدك يعطيني أجري.

قلت ذلك وأنا أمد يدي نحو روسير، الذي فاجأني وأعطاني المغلف المعتاد.

جلست على الأريكة، وتنفَّست الصعداء لأهدئ من روعي.

ـ هل كنتُ أتخيّل أم أن والدي كان يصرخ عليك بالفعل؟

ـ لم تُعْجِبه نزهة الأمس.

ـ يا له من مغفل! ما هي مشكلته؟

ـ إنه شخصٌ يوَدُّ أن تكون كل الأشياء تحت سيطرته.

ـ هل أحسستِ بذلك؟ أحسنتِ، إنه كذلك بالضبط. لهذا السبب تزوَّج من حمقاء، إنها من النوع الذي تسهل السيطرة عليه.

ـ وأنت.. لا؟!

ـ أبي يحترق ليعرف ما يدور في رأسي، هذا ما يدفعه للجنون.

ـ حافظ على أسرارك، لا تقلْها لي.

ـ لكنني أحب أن أعهد إليكِ بها.

الوضع أصبح لا يطاق، فكَّرتُ أن ألمِحَ له بأننا تحت المراقبة ويتم التنصُّت علينا. كيف السبيل إلى ذلك؟ كان الأب يرصد أبسط تحركاتي. إضافةً إلى أن اكتشافه مدى قذارة والده ليس هدية، لذا توجَّب عليَّ أن أغيّر المحادثة بأقصى سرعة ممكنة.

ـ هل فكرتَ يوماً بالكتابة؟

ـ ماذا أكتب؟

ـ قصائد، يوميات.

ـ لستُ فتاة.

انفجرتُ ضاحكةً.

ـ رواية؟

ـ لماذا قد أكتب؟

ـ كي تفتح قلبك.

ـ سيقرأها والدي خفية. إنه يفتش غرفتي وحاسوبي، خصوصيتي الوحيدة هي معك.

ـ لماذا يتصرف والدك بهذا الشكل؟ هل يعتقد أنك تتعاطى المخدرات؟

ـ عليه أن يعرف أنني أكره ذلك. الفتيان في المدرسة الثانوية يدخنون ويستنشقون، بالنسبة لي هذا يجعلهم حمقى، لكن أبي لا يحتمل ولا يقاوم أن يكون هناك أسرار. أنتِ كالأمس ـ تابَعَ ـ تبدين مختلفة، شيءٌ ما يحدث، أفهمك، لكن هذا سيجعلك تبتعدين عني.

ـ لن أبتعد عنك.

ـ أتمنى أن أكونَ أنتِ. إن وجودك كفتاة شيءٌ في حد ذاته لا يغريني، بل الباقي منك هو ما يجذبني: حريتك وجاذبيتك. لا بد وأن من الرائع أن تكوني أنتِ.

ـ إنها المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً كهذا.

ـ ربما الكثير من الأشخاص يتمنون أن يكونوا أنا، هم مخطئون، أنا سجين، وأكره ما أنا عليه.

ـ ما الذي باستطاعتك فعله لتغيير ذلك؟

ـ من الجيد أن أكون معك، وأيضاً عندما أقرأ.

ـ اقرأ أكثر!

ـ وما الذي أفعله كي أراكِ أكثر؟

ـ أنت تراني كثيراً بالفعل.

ـ لقد أحببتُ خروجنا البارحة.

ـ بإمكاننا زيارة متاحف أخرى.

ـ كنت أفكّر بالتنزُّه في الغابة.

ـ أنا لستُ مدربك الرياضي يا «بي».

تنهَّد:

ـ حسناً، لا يمكنني إجبارك إن كنتِ لا ترغبين في ذلك.

كان الموضوع غامضاً، وقررت عدم توضيحه.

ـ كنتَ قد أحبب رواية «الشيطان في الجسد»، ماذا لو كنتَ قرأت رواية رايموند راديغيه الأخرى «حفلة الكونت أورجيل»؟

ـ نعم، لقد رأيته في الرف الأول من المكتبة، اتبعيني.

سعيدةً بالفرار من مراقبة الأب، تبِعْتُ الفتى إلى الطابق العلوي. أدخلني إلى غرفة مخصصة للكتب: تم ترتيب الكتب فيها بشكل رائع على رفوف معايرة.

صرخت:

ـ يا له من كنز!

كان هناك أشهر الكتّاب في العالم.

ـ من يقف وراء وجود هذه المكتبة؟

ـ إنه والدي.

ما إن أوشكتُ على الاعتقاد بأنني أخطأت في تقدير ذاك الرجل، حتى تابع المراهق:

ـ السخرية تكمن في أنه لم يقرأ أيّاً من هذه الكتب الموجودة هنا.

ـ هل يُعقَل هذا؟

ضحك «بي» ضحكةً صاخبةً:

ـ لو كنتِ تعرفينه بشكل أفضل، لأدركتِ أن هذا أمر عادي بالنسبة له. يقول إن وقته لا يسنح لهذا، بيْدَ أن لديه الوقت لتجميع الكتب واختيارها

من قِبَل العارفين. عندما كنت صغيراً كنت أعتقد أن والدي رجل منشغلٌ للغاية، وذات يوم، قبل ثلاث سنوات، اختبأت تحت مكتبه للتجسُّس عليه. هو لا يفعل أي شيء! ينظر بين الفينة والأخرى إلى شاشة كمبيوتره، وينقر على لوحة المفاتيح، ويتصل بشخص ما ليقول: «حسنًا، هذا مناسب!»، وهو يقلب صفحات صحيفة وول ستريت جورنال. كان هذا كل شيء، يمكث في مكتبه لساعات ويسمّي ذلك عملاً.

ـ إنها بلا شك مهنة لا نعرفها.

ـ إن ما لا أعرفه، هو ما يريده مني بالضبط، أهي عملية استنساخ له؟ وإن كانت الحال كذلك، فلماذا اتصل بك؟ وكيف يمكن لعمل كهذا أن يمنعه ـ كما يقول ـ من القراءة، على سبيل المثال؟

ـ لا بد وأن يكون هناك ما يجول في خاطره.

ـ لا يفكر بشيء!

ـ لماذا إذن أسس هذه المكتبة وغذّاها؟

ـ لجذب الانتباه إلى صالة عرضه.

ـ أيّ صالة؟

ـ صالة الضيوف. صحيحٌ أنهم قِلَّة، لكن والدي يستقبل بعضهم أحياناً، ومن هنا جاءت فكرة المنزل الفخم، لا يهتم والداي بما يسمّيانه تفاخراً «فن الحياة»، والأثاث الفاخر، والكتب، والأطباق الجميلة، والوجبات الراقية. كل ما يبتغونه هو إبهار ضيوفهما، فقد كانا يأكلان أي شيء ويقضيان أيامهما ولياليهما في الفراغ.

ـ هل يشاهدان التلفاز؟

ـ كانا ينغمسان أمام التلفاز المشتغل، لا يمكن القول بأنهما يشاهدانه.

ـ ألم تكن هناك بعض اللحظات التي تتشاركها مع والديك؟

ـ أمي وأبي بالكاد يتحدثان مع بعضهما.

ـ وأنت؟

ـ أبقى في غرفتي.

ـ ألا تتناولون العشاء معاً؟

ـ لا، لحسن الحظ. ففي المرات القليلة التي حصل فيها ذلك، كان الأمر مروعاً، لم أستطع أن أبتلع طعامي، والدي يهين أمي فيما هي لا تدرك ذلك، من الفظيع رؤيتهما معاً.

ـ عندما كانا يستقبلان الضيوف، أكنت برفقتهما؟

ـ لا، أنا لست لطيفاً، لا أتصرف كما ينبغي. إنني متهكم، أقول الحقيقة. بكل الأحوال، إن ما يتحدث به هؤلاء الناس مجرد هراء، فهم لا يهتمون ببعضهم، يمكنك تخيُّل المشهد.

ـ لماذا إذن يستقبلانهم؟

ـ لأجل الاستعراض. دون أن يدركا أنهما لا يثيران إعجاب أحد سواهما، إنه لأمرٌ مثيرٌ للشفقة.

في تلك الأثناء دخل غريغوار روسير متظاهراً بأنه متفاجئ:

ـ أنتِ هنا؟

أجبت: «كما ترى».

ـ ما الذي تفعلينه هنا.

ـ أدرِّس الأدب لابنك. إن المكتبة هي المكان الأكثر منطقية لذلك.

خرج من هناك تاركاً الباب مفتوحاً خلفه.

ـ إنه يراقبنا، على ما يبدو.

قال «بي» متنهداً، وتناول رواية «حفلة الكونت أورجيل».

وصلت في الوقت المحدد إلى موعدي مع الأستاذ الذي كان ينتظرني بتوتر لم يُحاوِل إخفاءه.

ـ كنت أخشى ألا تأتي.

ـ لماذا قد أفعل؟

ـ هناك أناسٌ أفضل مني للتسكُّع معهم، بالتأكيد.

ـ لا، فبغض النظر عنك، أنا لا أرى إلا تلميذي، أعطيته درساً بعد ظهر اليوم. وأنت أتتسكع مع كثير من الناس؟

ـ لا أحد على الإطلاق. ليس لدي أصدقاء.

ـ حتى من بين الأساتذة الآخرين؟

ـ كل إنسان يهتم بنفسه، كما تعلمين. إن محاضراتي ليست ذات أهمية، كما أنني لست ثرثاراً، فلماذا قد يهتم بي أحدٌ ما؟

ـ كنتَ متزوجاً. حدثني عن هذا.

ـ إنه المسار التقليدي. عندما كنت في الثانية والعشرين من عمري وقعت في حب فتاة من عمري، وتزوجنا. وبلمح البصر، أدركَتْ زوجتي أن هناك رجالاً أكثر جاذبية مني. ذات يوم أخبرتني بأنها تحب شخصاً آخر، فانفصلنا، وبقينا أصدقاء.

ـ ألم تحاول منعها؟

ـ أكرر: «كانت تحب رجلاً آخر».

ـ ألم تعِشْ قصص حبٍّ أخرى؟

ـ لا.

ـ هل يُعْقَل ذلك؟

ـ لا أعرف كيف أوضِّح لك الأمر. لا يمكننا إكراه أنفسنا على فعل هذا، يجب أن أقع في الحب كي أتحلى بالشجاعة اللازمة للتحدث مع امرأة.

ـ لا بد وأن هناك طالبات مغرمات بك من حولك.

ـ ربما، ولكن هذا لم يلفت نظري. بينما أنتِ، فقد لاحظتك بلمح البصر، طريقتك في أن تكوني متفردة في عالمك، والاستماع إلى محاضرتي بعمق شديد.

ـ لا بد وأنني كنت أبدو منعزلةً جداً، وهذا ما أعجبك.

ـ لم تكوني منعزلةً، أنتِ فقط لا تنتمين إلى القطيع، ولا تسعين إلى التشابُه مع الأخريات. لا تقدمين الولاء للسادة، ولا تعارضينهم.

ـ الأمر إذن، أنني تعرضتُ للإهانة على الملأ، وأنت تحب أن تلعب دور المنقذ.

ـ لستِ بحاجة لمن ينقذك، أنتِ من تملكين القدرة على الإنقاذ.

ـ أنتَ تنعتني بصفاتٍ لا أملكها.

ـ إن الميثولوجيا هي تخصصي، وأنتِ تتشابهين والشابة «أثينا»، أشادوا

بذكائها وكانوا على حق. لكنهم يتناسون التحدث عن جمالها، مع أنها جميلة جداً في كل التماثيل التي تجسدها.

ـ لو كنت على هذا المستوى من الجمال، لقال لي أحدهم هذا من قبل.

ـ لا، نحن سكان الدول الإسكندنافية لا نقول كلاماً محبباً، لقد ذكر يوليوس قيصر أكثر تصرفاتنا الجيدة في كتابه «الحروب الغاليّة».

ـ «إن البلجيكيين هم الأعتى من بين سكان بلاد الغال».

ـ ويضيف هذا المقطع غير المعروف كثيراً: «إن البلجيكيين، وبفضل تجاورهم مع الألمان، ظلوا في حالة حرب على الدوام. كما أن ابتعادهم عن المقاطعات الجنوبية، منعهم من التواصل مع التجار»، على هذا النحو، نحن نبدو كأبطال، لكننا لسنا كذلك. بل في الواقع نحن متوحشون، زميلك الذي شتمك خير دليل على ذلك. أنا وأنتِ كائنات حساسة ولِدَت بين شعوب متوحشة، وهذا سبب وحدتنا.

جاء النادل ليسألنا عما نريد أن نشرب، طلب الأستاذ زجاجة شمبانيا، مندهشاً من هيئتي المستهجنة:

ـ ماذا؟ ألا تحبين الشمبانيا؟

ـ أعشقها، لكنني لا أجد سبباً للاحتفال؟!

ـ لقاؤنا ببساطة.

ـ أتريدني أن أشرب؟

ـ من جهتي، أنا أحتاجه.

ـ هل أنتَ كحوليّ؟

ـ لا، على الإطلاق. أنا شخص خجول.

قام النادل بتثبيت دلو الثلج وفتح زجاجة شمبانيا من نوع «Deutz».

ـ بصحتنا!

قال الأستاذ.

لقد كان ذلك أكثر من رائع.

واستأنف:

ـ من الجيد أنني لم أعِش في العصور القديمة، وإن يكن لهذا السبب وحده....

لم يكن من السهل ابتلاع المشروب صافياً، لذا فإننا لم نشرب بشكل جيد، كما كان علينا مزجه بالماء وإضافة بعض التوابل عليه كي نستطيع ذلك. بالنسبة للمشروبات المشهورة، فإن فوهة القارورة، عادةً ما تكون مشربة بالزيت الذي تم إحكام غلقها به: باختصار، إن نسبة المشروب الذي يذهب كقربان هي ذات مذاق سيئ.

لقد كانت كأسي فارغةً تماماً.

ـ تشربين بسرعة!

ـ لاحظت ذلك.

ـ أتشربين هكذا دائماً؟

ـ إنها المرة الأولى التي يطلب فيها شخصٌ ما الشمبانيا من أجلي، لست معتادةً على ذلك.

ـ حدثيني عنك قبل أن تسكري.

ـ والدي مدير محطة ماربيهان.

ـ أين تقع؟

ـ ماربيهان، بلدة صغيرة في آردين حيث ولد. كان حلمه أن يكون مدير محطة في ماربيهان، وقد نجح في ذلك.

ـ هذا رائع! وماذا عن والدتك؟

ـ أخصائية للعناية بأظفار الأقدام.

ـ في ماربيهان؟

ـ أجل، إنها تعرف أقدام كل الناس هناك.

ـ ألديهم الكثير من المشاكل في أقدامهم؟

ـ كأيّ مكان آخر. إنها مهنة اجتماعية للغاية: عليك التحدث إلى الأشخاص الذين يأتون ليعرضوا أقدامهم، أمي رائعة في عمل كهذا، إنها تنزع مسامير اللحم وتُقَلِّم النتوءات وهي تسألهم عن أطفالهم وأبقارهم.

ـ أبقارهم؟

ـ ماربيهان، قرية ريفية، لقد نشأت في الطبيعة.

ـ هل هناك مدرسة؟

ـ مدرسة ابتدائية، نعم، وتلك التي التحقت بها في المرحلة الإعدادية، كنت أذهب بشكل يومي إلى آرلون بالقطار.

ـ ألديك أخوة وأخوات؟

ـ لا، أنا أفتقد ذلك، لطالما كنت وحيدةً جداً.

ـ أتترددين على ماربيهان كثيراً؟

ـ نادراً. أنا أحب تلك المنطقة، والغابة منها على وجه الخصوص، لكِنْ ساعتان بالقطار، ليست مزحة. لذا أكتشف بروكسل الآن.

ـ أتحبين بروكسل؟

ـ نعم، إنها أول مدينة كبيرة في حياتي. متوجهةً إلى مدرسة آتينيه في آرلون كل صباح، كان يتملكني انطباع بأنني أنتقل من قرية إلى مدينة. الآن أدرك أن آرلون ما هي إلا بلدة صغيرة.

ـ إنها إحدى أوائل المدن الغالو ـ رومانية.

ـ بالضبط. حدثونا في المدرسة الثانوية بما فيه الكفاية عن ذلك! وأنتَ من أين؟

ـ لطالما عشت في بروكسل.

ـ كيف هي النشأة هنا؟

ـ بالتأكيد كانت هناك طرق للاستمتاع، لكنني لم أختبرها. لطالما كنت وحيداً، مثلك تماماً. أنا لا أشكو من ذلك، فأنا أحب العزلة، والسبب المتفرد لمغادرتها هو الحب.

أعاد ملءَ الكأسين. مجدداً شربتُ بسرعةٍ أكثر من اللازم.

ـ لديَّ انطباعٌ أنكِ روسيَّة!

انفجرتُ ضاحكةً.

ـ أنا رمادية اللون، هذا كل ما في الأمر، أحب هذا الإحساس.

ـ حدثيني.

ـ روح الشمبانيا تتملكني، أشعر بالسعادة والخفة.

ـ سأحاول أن أشرب بسرعة مثلك. (وشرع بملء الكأسين مجدداً).

عندما فرغت زجاجة الشمبانيا، خرجنا مخمورين وخفيفين، متشابكي الذراعين، وبدأت أركض بفرح.

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ـ أتريد أن تشاركني منطاد الزيبلان؟ أريد أن أتأمل عالم قمة أوليمبوس. ألم أكن في أثينا؟

مررنا أمام متجر للشوكولا على وشك الإغلاق. هرعت إلى الداخل.

ـ أريد منها!

قلت، مشيرةً إلى الرفوف. فاشترى دومنيك جينسون عبوات من أصناف الشوكولا التي أشرت إليها.

في قمة الإثارة، جلست على أول مقعد رأيته.

ـ ألا تريدين الذهاب إلى منزلي؟

ـ سأنثر بقايا الشوكولا في كل مكان، من الأفضل أن نأكلها هنا.

ـ سيرانا الناس.

ـ ما السيئ في أكل حلوى اللوز في الشارع؟

على الفور، قمت بترتيب الصناديق بيني وبين الأستاذ، وقمت بفتحها واحداً تلو الآخر.

ـ فليهتم كلٌّ منّا بنفسه!

قلتُ، وهجمتُ، أقضم شوكولا الأستريد، وبدأت الكراميل تتهشم تحت أسناني، فتنهَّدت بسعادة. عندما فتحت عينيَّ كان دومينيك جونسون يقلِّدني.

ـ دائماً أبدأ بالأسوأ.

قلت وأنا أمضغ شوكولا المانون.

ـ لدي ابنة أخت تعتقد بأن اسم مانون يشير إلى حلوى اللوز.

ـ قد يكون من الرائع منح أطفالها أسماء الشوكولا.

بينما كنا ننتقل من شيء لآخر، أكلنا كل الشوكولا، وكان الليل قد حل. اقترح دومينيك جونسون:

ـ ماذا لو ذهبنا إلى منزلي الآن؟

ـ شرط أن يكون هناك سمك الأنشوجة والمخللات.

ـ ماذا عن الزيتون الأخضر؟

ـ هذا سيفي بالغرض.

بدت شقته متواضعةً. غسلت يديَّ وأصابعي المغطاة بآثار الشوكولا، ثم انضممتُ إليه في غرفة المعيشة حيث التهمنا طبقاً من الزيتون الأخضر. الذي جعلني أصحو من الثمالة وأدرك أنني كنت وحدي رفقة أستاذي في علم الأساطير المقارن، وأجلس معه على الأريكة في منزله.

ـ ما الذي يجري هنا؟

ـ ما أردتِه، آنج.

شعرت بتعبٍ مفرطٍ.

ـ أريد أن أنام.

قدَّم لي سريرَه واستلقى على الأريكة، لم يكن هناك متسعٌ من الوقت للتفكير في أي شيء: نمتُ على الفور.

لقد نام الأستاذ بعمق أيضاً، حتى أنه ظلَّ مرتدياً بذلته وربطة عنقه. استيقظت في منتصف الليل، وخرجت من الشقة وخلال ثلاثة أرباع الساعة من المشي كنت في المنزل،لأكمل الليلة في سريري.

عند الظهيرة ذهبت إلى منزل عائلة روسير، ورمقني «بي» مصدوماً.

ـ أنتِ أغرب من الأمس.

ـ بوفيه يسخر من مطعم.

ـ هل تتكلَّمين اللهجة البلجيكية؟ لم أفهم.

ـ إنها لغة فرنسية بامتياز. حسناً، ربما ليست ممتازة، لكنها فرنسية.

ـ أتساءل عمّا إذا كان من المنطقي أن أتعلم هذه اللغة من بلجيكية.

ـ دعني أوقفك عند هذا الحد، إن أفضل النحاة في هذه اللغة، كما تقولون، هم البلجيكيون. لذا، فنعم، من الطبيعي جداً أن يكون لديك مدرس بلجيكي. أودُّ أن أضيف أن تعييني كان لعلاج عسر القراءة وليس لتعليمك اللغة الفرنسية، وأنني فعلت ذلك منذ الجلسة الأولى. إذن، فأنا

أعتقد أنني لطيفةٌ جداً ببقائي هنا. مهمتي قد أنجزت، وأنت تصبح مزعجاً أكثر فأكثر.

ـ أأنا مزعجٌ إلى هذا الحد؟

ـ أنت تحتل المرتبة السادسة على مقياسٍ يبتدئ باثنين وينتهي بسبعة.

ـ لا بأس لا زال لديَّ هامشٌ للتحرك.

انفجرت ضاحكةً.

ـ حفلة الكونت أورجيل، إذن.

ـ كرهتها. لا أستطيع أن أصدق بأنك كنت تحبين هذا الكتاب، أنت تتظاهرين بهذا للإيقاع بي.

ـ عفواً.

ـ لن أقعَ في فخِّك، لا أصدق كلمةً مما تقولين، أنت تكرهين هذه الرواية.

ـ ما خطبك؟

ـ هذا الكتاب ممل، إنه مجرد هراء. لا صلة له برواية «الشيطان في الجسد».

ـ بهذا، أنا أتفق معك. أما بالنسبة لبقية ما قلته، فعذراً أنا أحب هذا الكتاب. إنه ماسة الأدب السوداء. على صعيد المثلث الكلاسيكي: الزوج والزوجة والعشيق، لم يكتب ما هو أجمل وأكثر حساسية وحضارة منه.

ـ أنتِ تقولين هذا لتسخري مني.

ـ لا. من حقك ألا تُعْجَب بهذه الرواية.

ـ اعتقدت حقاً أنكِ كنتِ تختبرينني وتضعينني على المحكّ.

ـ لماذا قد أفعل هذا؟

ـ لتثبتي لي أنني غير جديرٍ بك.

ـ بيل، ساعدني! توقَّف عن هذا الهذيان. ليس عليك أن تكون جديراً بي.

ـ إن كانت هذه هي طريقة تفكيرك، فالأمر أسوأ. هذا يعني أنكِ لا تفكِّرين بي كعشيق.

ـ هذا صحيح.

ـ هل بسبب عمري؟

ـ لا علاقة لهذا بالأمر.

ـ لأي سبب إذن؟

ـ أحبُّ أحداً آخر.

منهاراً قال:

ـ من؟

ـ ليس لديَّ ما أخبرك به.

ـ لماذا لم تعترفي لي بذلك في وقت سابق؟

ـ هذا ليس من شأنك؟

ـ لا.. تعرفين أنني مغرمٌ بكِ.

ـ أنتَ لست كذلك. ببساطة، أنت فتى هشّ ووحيد، لذا فإن الفتاة الأولى التي تدخل حياتك ستجذبك بطبيعة الحال، هذا كل ما في الأمر.

ـ أتحتقرينني إلى هذه الدرجة؟

ـ أنا أحترمك جداً، لكنني لا أحبك، ومن غير المرجَّح أن يتغير هذا.

ـ هل أبي هو حبيبك؟

ـ لا، ما بِكَ اليوم يا «بي»؟

ـ أشعر أن هناك رجلاً كبيراً في حياتك.

ـ ألا يوجد رجل كبير آخر إلا والدك.

ـ حسناً، تعترفين بأنه مُسِنٌّ؟

ـ أكبر منك، نعم.

ـ هل أنا فرانسوا دو سيريوز.

ـ أتعتقد بأنك تشبهه؟

ـ ما العيب فيّ، آنج؟ هل أنا بهذا السوء؟

ـ أنتَ بحاجة للخروج من هنا، ورؤية أصدقاء والذهاب إلى حفلات، هذا كل شيء.

ـ لا أصدقاء لدي.

ـ هذا يدل على التراخي. من المستحيل ألا يكون هناك شخص لطيف واحد في مدرستك الثانوية.

ـ أتودين أن تكوني صديقتي؟

ـ إنْ فهِمْتكَ بشكلٍ صحيحٍ، فقد اخترتَني بديلاً مؤقتاً في جميع مجالات حياتك. حدِّثني عوضاً عن ذلك عن «حفلة الكونت أورجيل».

ـ لا أحب الطريقة التي كُتِبَتْ بها، إنها قديمة.

ـ كان راديغيه في التاسعة عشرة من عمره عندما كتبها.

ـ إن رواية «الشيطان في الجسد» أكثر يفاعةً، إنها أفضل.

ـ هل ستقول عن «الإلياذة» التي أحببتَها بشدة، إنها يافعة؟

ـ ليست حديثة وليست قديمة، هذا غريب.

ـ حسناً هو ذلك. إن رواية «حفلة الكونت أوريل»، نفيسة بطريقة غريبة. لقد قام كوكتو وغاديغيت بقراءة ثانية لرواية «الأميرة دو كليف» محمَّلَين بمشاعر الإعجاب بها، وقرَّرا، كلٌّ منهما بمفرده، إعطاء نسختهما المعدلة، كما لو أن رسامَين مبتدئين يتدربان على نسخ الموناليزا. هذا ما أنتج تحفتين أدبيتين: «الدجّال توماس» من جهة، و«حفلة الكونت أورجيل» من جهة أخرى.

ـ لا أبالي بذلك. أنا لم أقرأ «الأميرة دو كليف».

ـ لذا ستقرأها. إنها روايتي المفضلة.

ـ ونتيجةً لذلك ـ إن لم أحبّها ـ هل ستكرهينني؟

عندما خرج غريغوار روسير من مكتبه كي يحاسبني، نظر إليَّ بغرابة كما فعل ابنه. هذا المنزل المجنون أصبح يزعجني أكثر فأكثر.

هل سأقع في حب أستاذ علم الأساطير المقارن؟ لم أكن أقوى على مجرد طرح السؤال على نفسي. يبدو أنني قد وقعت في حبه بالفعل.

إن العلاقات التي مررت بها سابقاً هي عبارة عن تبدلات سريعة وبائسة: إن التعامل مع شخص محترم ولطيف هو حدثٌ جديدٌ رائع.

قلت له:

ـ لا أريد أن يعرف أحدٌ شيئاً عني وعنك.

ـ بالطبع. أفهمك.

كان يتفهم كل شيء. انتهى بنا المطاف بممارسة الحب، لم أكن أتوق إلى ذلك، لكنه كان أفضل مما توقعت.

قال معترفاً:

ـ لم أمارس الحب منذ عشرين عاماً، أشعر بأنني عدتُ بِكراً.

كان يشع بالسعادة.

استغرق الأمر أسبوعاً حتى اتصل بي «بي»، أعني، اتصل بي والده.

ـ ليلة واحدة كانت كافية لقراءة «الإلياذة»، بينما أخذت منك «مدام دو كليف» أسبوعاً كي تُنهي قراءتها، فسِّر لي هذا!

قلت على سبيل التمهيد.

ـ إنها معقدة، فيها عديدٌ من الشخصيات.

ـ شخصيات «الإلياذة» أقل بكثير.

ـ لم يكن كتاباً يتحدث عن الحرب.

ـ أتظن ذلك؟ رجل يحاصر امرأة منيعة.

ـ لم أقل إنني لم أحبَّ ذلك. لكن ما يحيرني هو أن تكون هذه الرواية هي روايتك المفضلة. لماذا؟

ـ لم يُكْتَبْ على الإطلاق ما هو أجمل وأكثر حساسية منها. إن التوتر العاطفي بين الشخصيات هو سيد الموقف، أخرج منها مصعوقة في كل مرة أعاود فيها قراءتها.

ـ ألذلك كنت تعيدين قراءتها؟

ـ لماذا أحرم نفسي من متعة كهذه؟

ـ لم أصل إلى المرحلة التي تقترن فيها القراءة بالمتعة. برأيك إذاً، عليَّ إعادة القراءة! ما يجعلني أشعر بالإحباط هو قلة القواسم المشتركة بيننا.

ـ هل هذا مهم؟

ـ نعم، أنتِ لا ترغبين بصداقتي أبداً.

ـ بالنسبة لك، الصديق هو الشخص الذي يشبهك؟

ـ ليس بالضرورة. لكن إن لم يكن بيننا نقاط مشتركة...

ـ لدينا منها أكثر مما تظن. ومع ذلك، حتى وإن لم تكن موجودة، يمكننا حقاً أن نكون صديقين.

ـ حقاً؟

ـ هناك قصة عن هذا الموضوع. كان لسيزان صديق قد اتفق كل الناس على كونه فاشلاً وعديم الفائدة. سأله المحيطون به في غياب صديقه عن كيفية الشعور بالصداقة مع نموذج كهذا؟ محشوراً في الزاوية، انتهى سيزان إلى الإجابة بأنه: يختار الزيتون بشكل جيد.

ـ لا أعرف شيئاً عن الزيتون.

ـ أنت أبعد ما يكون عن الفاشل وانعدام الفائدة. لديَّ إحساس بالصداقة بيننا، لكنني لست صديقتك، إن واجبي هو أن أعلمك بعض الأشياء.

ـ علميني أن أعيش، أنا في أَمَسّ الحاجة لذلك.

ـ أنت تضغط عليَّ. لم يعلمني أحدٌ هذا.

ـ ترين أنني لست بارعاً في ذلك.

ـ أنا لست واثقةً من أنني على قيد الحياة أصلاً.

ـ أنا متأكد من هذا. عندما تصلين إلى هنا أشعر أن الحياة هبطت عليَّ، وعندما تغادرين يغادر كل شيء رفقتَكِ.

مثقلةً بهذا الكلام، أعلنت أننا سنخرج.

ـ متى؟

ـ على الفور، تناول سُترتَك.

يجب ألا نمنح والده فرصة للتحرك.

لمرة واحدة في الشارع سألني «بي» عن وجهتنا.

ـ إلى «Foire du Midi»، أنت لا ترتاد إلا الأحياء الجميلة.

ـ هل تذهبين إلى السوق غالباً؟

ـ بالطبع. (وقد كذبت).

ـ لا أعتقد أنني ذهبت إليه من قبل.

ـ «تعتقد».. إنها مبالغة، أرى أنك لم تذهب إليه من قبل.

أوصلنا القطار إلى «Foire du Midi»، حيث تسود أجواء الأيام العظيمة، يعبق الهواء برائحة القلي والأنفاس. سحبتُ الفتى نحو لعبة السيارات المتصادمة، وإلى ميدان الرماية ثم إلى قصر الرعب. كان يحتفظ بتعبير من الرعب المرّيخي وفي حالة تأهب مستمر.

ـ انطلق يا «بي»! إنه المهرجان.

ـ لماذا يأتي الناس إلى هنا؟

ـ للاستمتاع.

ـ هل هذا ممتع؟

ـ تريدني أن أعلمك كيف تعيش. ألا يمكنك إظهار بعض الإرادة؟

اشتريت له توفل مدينة لييج الساخن وقد التهمها بشهية.

ـ أحب هذا.

ـ نقطة جيدة لك.

ـ هل أستطيع أن أقدّم لك البيرة؟

ـ حسناً.

كانت مجرد بيرة من نوع jupiler، لكنها جلبت تأثيراً قوياً، فها هو «بي» قد استرخى أخيراً. ذهبنا إلى منصة الترامبولين، حيث قفز ضاحكاً كطفل، ولم يتوقف إلا ليتقيأ.

ـ هذا جيد ـ قلت كنوع من الإطراء ـ إن لم نتقيّأ في المهرجان، فإننا لم نستمتع جيداً.

ـ البلجيكيون برابرة!

ـ نعم، كنتَ بحاجة إلى ذلك. لم تتعامل مع ما يكفي من البرابرة.

ـ إنني خجل لأنكِ رأيتِني أتقيّأ.

ـ هذا يخلق روابط.

ـ أرى أنكِ لم تعودي تقولين «ذلك».

ـ قول «ذلك» في مهرجان ميدي، عقوبته السجن.

ـ وأنتِ، ألا تتقيَّئين؟

لاحظت وجود آلة تدفع الركاب في حلقة مفرغة من اللفات الدائرية، فقلتُ له:

ـ أعطِني خمس دقائق.

صعدت مع الرتل التالي. عندما نزلت، سارعت للتقيؤ قرب «بي»، الذي صفَّق لي. شعرتُ بالفخر.

ـ أنتِ لستِ جبانة.

قال الفتى بكل احترام.

ركبنا القطار مجدداً للعودة إلى المنزل. في الطريق ضحكت بجنون:

ـ كان من المفترض أن يخصَّص هذا الدرس لرواية «الأميرة دو كليف».

ـ نعم، وذهبت الأميرة ونيمور للتقيؤ في المهرجان.

أيقظني بغتةً توزيعُه للأدوار.

العقاب لم يكن مُنتظراً.

ـ أنا لا أدفع لكِ لأخذ ابني إلى المهرجان.

ـ جيد جداً. اطردني.

ـ أنتِ تعرفين أنكِ إن تخلَّيتِ عن «بي»، فإنه لن يتعافى من ذلك أبداً.

ـ إنك لأبٌ بغيض.

ـ لا أكترث لرأيك في هذا الموضوع.

عندما عدت للانضمام إلى المراهق بَدَوْتُ غاضبةً.

ـ هل وبَّخَكِ أنتِ أيضاً؟

ـ لن نتكلم عن هذا.

ـ كما تعلمين لقد قرأت أكثر بكثير مما هو في منهج المدرسة.

ـ آمُلُ ألا يكون هدفك هو الامتثال لهذا المنهج.

ـ لا، غير أنَّ عليَّ النجاح بمرحلتي الأولى.

ـ ستنجح نجاحاً باهراً.

ـ من غير المؤكد. إن المعلمين يكرهونني.

ـ لماذا؟

ـ يبدو أنني أعاملهم بازدراء.

ـ هل أنت كذلك حقاً؟

ـ أنا ببساطة لا أحترم هؤلاء المعلمين.

ـ هذا ليس سبباً لاحتقارهم. كن مهذباً هذا كل ما يتطلبه الأمر.

ـ حتى وإن غيَّرت سلوكي، فستبقى صفتي ملتصقةً بي.

ـ حاول وسترى.

ـ إنه لشيءٌ محبِط.

ـ أنت من تحبِط نفسك، «بي». أي اقتراح أقدِّمه لك، تقوم برميه عرض الحائط.

ـ أجد صعوبة كبيرة في معرفة آلية العيش.

ـ كالعادة، كل ما تستطيع فِعْلَهُ، هو أن تقدِّم لنفسك عذراً كي تتذمَّر.

ـ لا تشفقي عليّ. لماذا أريد أن أعيش أصلاً؟ هذا هو السؤال الوجيه.

ـ هناك الكثير من الأشياء الرائعة.

ـ أنتِ تعرفين أنَّ هذا غير صحيح. ما إن أنتهي من دراستي الثانوية سألتحق بدراسات مملَّة، كي أخلص إلى نموذج سيئ كأبي.

ـ اختر شيئاً آخر، كُنْ مغامِراً.

ـ لم يعد بإمكاني.

ـ بلى، بإمكانك.

ـ إذن، ما الهدف من إنهاء الثانوية؟

ـ لا ضرر ولا ضرار. على سبيل المثال إنَّ قراءة كتب جميلة هو بمثابة تحضير ممتاز للمغامرة.

ـ ها أنتِ، ليس لديك مغامرات، ورغم ذلك تعيشين سعيدة.

ـ أحبُّ ما أدرُسُه، وأحبُّ اكتشافَ بروكسل، إنها مغامرتي.

ـ أنا مغرم بك.

ـ توقَّف. أنت تقول هذا لأنك تشعر بالملل.

ـ أنا لا أشعر بالملل وأنا معك.

ـ أكرر لكَ أنا لست حبيبتَك، ولن أكون.

ـ من الطبيعي أن تقولي ذلك، أنتِ الأميرة دو كليف وأنا نيمور.

ـ أنا لست تلك الأميرة وأنت لست نيمور. أكِنُّ لك صداقةً يا «بي»، وكن حريصاً على ألا تفقدها.

ـ أتهددينني؟

ـ أنا أحذِّرك. الأمر مختلف.

ـ بفضلك، لديَّ انطباع أنني أعيش في زمن مدام دو لافاييت، أستطيع رؤيتك مع الفراولة.

ـ إنها موضة أهيم بها، ويمكنني بدوري رؤيتك داخل سترة بأكمام منتفخة تتفجر بالشقوق.

ـ متشققة، مثل الإطارات المثقوبة؟

ـ لا يوجد شيء مشترك. هي الطيات المتشقِّقَة المحشوَّة بالثياب الفخمة التي كانت شهيرةً في ذاك البلاط. اليوم، عندما تكون الثياب ذات طيات متشققة، تبدو دون فائدة. في تلك الحقبة كانت تبدو في الجزء الداخلي لتلك الطيات أقمشة فخمة، حيث تحمل أدق التفاصيل الفاخرة.

ـ هناك انتفاخات متشققة في هذه الرواية أيضاً.

ـ أحسنت، تتضمن الرواية انفجارات سردية رائعة، مثل حادثة الرسالة التي كتبها تيمور والأميرة دو كليف معاً. أنت أحببتَ هذه الرواية كما أرى.

ـ لا أستطيع أن أحب حقاً قصةً تذكرني كثيراً بقصتي.

ـ أكرر لك كلامي. لا صلة تربطنا بهذه الشخصيات. هل تستمع إلى الموسيقى في بعض الأحيان؟

ـ أحياناً، نعم.

ـ ما نوع الموسيقى التي تسمعها؟

ـ أتريدين أن أُسْمِعَكِ؟ تعالي إلى غرفتي.

لطالما كان اكتشاف غرفة شخص ما تدخلاً في الخصوصيات. كانت غرفة «بي» قليلة الملامح، كغرفة مراهق بالكاد قد استقر.

كان ملتزماً بفن الزخارف كالتي في فندق Maître، كانت الجدران عارية، والأثاث الرصين لم يؤثر سلباً على الأناقة الأصيلة للمنزل.

خيار جيد: كانت موسيقاه الخاصة بالضرورة. أدار Skrillex بكامل طاقته.

ـ Ease My Mind، أعشق هذه الأغنية.

ـ أتعرفينها؟

ـ ماذا تحسبني؟

ـ وهذه، أتعرفينها؟

ملأت الغرفة أصوات غرابة أعمق.

ـ ما هذا؟

ـ Liquid Smoke لـ Infected Mushroom.

ـ لم أكن أعرف شيئاًعن هذه الفرقة.

ـ سأجعلك تسمعين كل شيء.

ـ مستحيل، والدك سيقرع لي الأجراس. حسناً، أذكرك بأنكَ وعدتني بتكوين صداقات في مدرستك الثانوية. إنها مهمتك التالية!

عندما سلمني غريغوار روسير أجري، أحسست بأنه على وشك أن يعضَّني.

في المساء ذاته، سألت دومينيك عن الموسيقى التي يستمع إليها، فوضع مقطوعة 53 لشوبان، يؤديها آرثر روبينشتاين.

صرخت:

ـ إنها معزوفة L'Héroïque.

ـ إنها البولندية المفضلة لديَّ.

كنت أعرف المقطوعة من خلال عازفة البيانو مارثا آرغيريتش: كانت رائعة، لكن روبينشتاين كان أكثر حيوية.

إن للرجلين اللذين أقابلهما أفضل ذوق موسيقيٍّ في العالم.

ـ مهمتك إذن.

تنهد «بي» وبدأ:

ـ اكتشفت نموذجاً في صفي منبوذاً مثلي. فاقتربت منه في الاستراحة، وقلت: «مرحباً، «يان»». فقال: «ما الذي تريده مني؟»، قلت: «لا شيء، أن نتعارف فقط»، فسألني: «هل أنت مريض؟»، فقلت: «لا، أود أن أعرف من أنت»، فجاءني جوابه الأخير: «اغرب عن وجهي!». حاولت في الاستراحة اللاحقة الشيء ذاته مع فتاة بنفس الحال، فجاءني الرد: «خطة مغازلتك ضعيفة للغاية».

ـ ربما لم تختر مرشحيك بعناية.

ـ هل من المفترض أن أواصل البحث؟

ـ نعم، إنهما مجرد محاولتين، إنها نسبة قليلة.

ـ أشعر بأنني ذاهبٌ إلى ساحة المعركة.

ـ أنت لا تقامر بشيء.

ـ بطيب خاطر، لأنكِ من تطلبين.

ـ «بي»، أنت تكاد تموت من الوحدة.

ـ بالفعل، لكن العلاج أسوأ من المرض.

ـ أنت ببساطة لم تجد العلاج المناسب بعد.

ـ بلى، إنه أنتِ.

تجاهلت اعترافه الألف.

ـ لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن حدَّثتني عن شغفك بالأسلحة.

ـ ليس لدي ما يمكنني أن أخبرك به، فليس لديَّ أيٌّ منها.

ـ يا للسعادة.

ـ لو أن لدي واحداً لكنت استخدمته.

ـ هذا ما كنت أقصده، ما الذي فعلته بشخصيتك اللاعنيفة؟

ـ بصراحة، أنا أواجه مشكلات تتزايد أكثر فأكثر كل يوم.

ـ ألا تعتقد أنك بحاجة إلى ممارسة الرياضة؟

ـ أنا أكرهها.

ـ كيف تتوقع أن تسير الأمور على ما يرام دون أن تكون لديك حياة جسمانية وحياة اجتماعية ودودة؟

ـ هذه هي الحقيقة، ليس لدي حياة، وأخشى أن يكون هذا بالوراثة. فها أنا أراقب والديَّ: لا حياة لديهما، والأمر ذاته لدى كل من ينتمون إلى ذات طبقتي الاجتماعية... لذا، وبصدق، أنت الشخص الوحيد من حولي الذي يمتلك حياة. علِّميني.

ـ ليس بإمكاني تعليمك الرغبة، نحن نمتلك الحياة عندما نرغب بها.

ـ إن الحياة التي أرغب بها هي أنت.

ـ أنا لا أرغب بك، نقطة على السطر.

ـ لماذا لا يمكنني أن أصدقك؟

ـ لأنك مغرور، أو ربما لأنك مصاب بهوس جنسي، وهو الأسوأ. في كلتا الحالتين، إن حدثتني عن هذا مرةً أخرى، فسأستقيل.

ـ كيف سأخرج من هذا؟

ـ الأمر أسهل مما تعتقد.

ـ هل سبق لكِ أن وقعتِ في حب شخص لم يحبك؟

ـ بالطبع.

ـ ماذا حصل؟

ـ صرفت النظر عن المسألة.

ـ بهذه البساطة.

ـ لا، لقد عانيت من صفعة قوية، ثم ذهبت للبحث في مكان آخر.

ـ أنت بلجيكية بربرية، متوحشة، أما أنا فحساس للغاية.

ـ هذا ما يسمى الرضا عن الذات أو النرجسية. أعتقد بأن من يسمع Infected Mushroom بأقصى طاقته، ليس من ذوي الحساسية المفرطة، إنها مبالغة.

ـ كان يجب أن أكون موسيقياً.

ـ لم يفت الأوان بعد، أنت في العمر الأفضل للشروع بالعزف على الغيتار أو الطبلة.

ـ لا نية لديَّ.

ـ أنت شخص ميؤوس منه، «بي». امنح نفسك الوسائل لتحقيق شيء ما، تمتع بالحياة قبل حلول الموت. تحركْ!

ـ ما الذي يمنعني؟

ـ لا شيء، توقف عن التحديق في سرَّتِك.

ـ لدي رغبة في التنزُّه في الغابة. أنذهب الآن؟

ـ فكرة ممتازة.

ـ غادرنا على الفور. كانت غابة Soignes بجانبنا، وقد رحَّبت بنا بين أشجار زانها ورائحة أوراقها الميتة.

ـ أعيش هنا منذ شهور ولم يسبق لي أن زرت هذه الغابة لا أنا ولا أهلي.

ـ أحسنت باتخاذك هذه المبادرة!

ـ لماذا اختار أبي منزلاً ذا موقع جيد كهذا إن لم يتمتع بأيٍّ من مزاياه؟

ـ لقد اختار والدك هذا الحي لصيته وليس لخصائصه الموضوعية، على ما أتخيَّل. هذه الغابة من أجمل غابات أوروبا.

ـ يمكنك أن تعطيني دروسَكِ اليومية ونحن نتمشَّى في الغابة.

ـ سأترك لك أمر التفاوض مع والدك بهذا الشأن.

ـ هل تعتقدين أنه سيوافق؟

ـ لِمَ لا؟

دللته على طريق الخروج من المتنزه إلى قلب الغابة العظيمة.

فعلَّق قائلاً:

ـ إنها أكثر جمالاً هنا.

ـ نعم، لم يعد لديك أي عذر لتبقى عالقاً في منزلك.

ـ فتح لنا الأب الباب عندما عُدنا. قلت له متظاهرةً بأني لم أنتبه إلى نظرته الغاضبة:

ـ كان الدرس عن رواية روسو «أحلام يقظة جوَّال منفرد»، كانت النزهة ضرورةً مُلِحَّة.

ردَّ علي غريغوار روسير بنبرة هائجة:

ـ ليست منفردةً جداً، هذه النزهة.

ـ لم أعرف كيف يمكن أن أوصِل المعنى إن لم أكن هناك.

سلَّمني أجري وكأنَّه يصوِّب مسدساً نحوي.

تناولنا العشاء في المطبخ، كلٌّ منا قام بطهي طبقه الخاص وفقاً لإرشادات شريكتي في السكن، للحد من البكتيريا والفيروسات.

سألتني دونات عن سبب عدم سماعي لكلمة واحدة من حديثها، فشرحت لها القصة التي أفكر بها. قالت لي:

ـ لن يقبل أبداً.

ـ سيترتب عليه إيجاد ذريعة لرفضه.

ـ سيجدها.

ـ سيلح «بي»، إنه صلب للغاية.

ـ أيّ عش دبابير أقحمتِ نفسَكِ فيه؟

ـ لم يكن باستطاعتي التخلي عن هذا المراهق.

ـ كيف تسير الأمور مع حبيبك المُسِنّ؟

ـ أأنتِ على علمٍ بشأنه؟

ـ إنه يتصل كل يوم، سمعت صوته. إنه ليس ساذجاً، كنت أخشى أن تقعي في حب الفتى!

وضعتني هذه المقاربة في مزاج سيئ. في الليل، غارقةً في الأرق، كان عليَّ الاعتراف بأن «بي» يجذبني أكثر من دومينيك. لم أكن مغرمة بأيٍّ منهما، لكن «بي» يعجبني أكثر.

ألم يكن هناك رجال سواهما؟ بالطبع يوجد، لكنني لم أقابلهم. لم يكن ذلك بسبب شُحّ المحاولات، لكن هذا ما قدمته لي حياتي: رجلين من أجلي يبلغان من العمر ستة عشر عاماً وخمسين عاماً. ليتني كنت على الأقل من صنف الفتيات اللواتي يجذبهن المراهقون أو كبار السن! لكن لا، إنني في الحقيقة لم أكن أنجذب إلى فئة عمرية معينة، غالباً إن هذا يفسِّر الأمر، حيث لم أكن من اللواتي يتخيلن الأمراء الساحرين ويرسمنَ صوراً خيالية لملامحهم، أنا أحتاج شخصاً حقيقياً كي أتأثر عاطفياً.

هل «بي» شخص حقيقي؟ نعم، بفارقٍ شِبْه مرئيّ، لا زال «بي» حقيقياً. لكنه وضمن هذا الترتيب، في غضون عامين، قد ينضم إلى والديه ويودِّع الحقيقة، ليصبح أحد تلك الكائنات الزائفة، صيرفياً، أو جامع خزف عن طريق الإنترنت.

هذا الفتى كان على علم بالدراما التي يعيشها، واستنجد بي طلباً للمساعدة. في الحقيقة إن وقوعه في حبي ما هو، بالنسبة له، إلا استجداء للاهتمام به.

وماذا عن دومينيك؟ لقد أثار اهتمامي إلى حدٍّ ما، لقد كان ينتمي إلى حافة الواقع التي يسعدنا وجودها، كمنظر طبيعي. على هذا التفكير غفوت.

عندما حان وقت الدرس، فتح لي «بي» باب المنزل الجميل. بدا لي غريباً، مع أن الغرابة جزء لا يتجزأ منه.

ـ كيف سارت المفاوضات مع والدك؟

ـ بشكل سيئ.

ـ اعتقدتُ ذلك.

ـ لا.

ـ ماذا تعني بـ«لا»؟

اصطحبني إلى مكتب والده. كان والده مستلقياً على الأرض، مذبوحاً، والدم يحيطه من كل مكان.

أسرعت إلى الشارع وتقيَّأت. لحق بي وجلسنا معاً على عتبة المدخل المؤدي إلى المنزل. تكلم «بي» بهدوء:

ـ كنت معه في مكتبه، أخبره بأنني أريد أن أمشي برفقتك، رفض بعناد، دون أن ينظر إليَّ. في لحظة ما، رأيت مرآة الغرفة، كانت أحادية الاتجاه، كان ذاك الوغد يراقبنا في أثناء الدروس. عند ذلك التقطتُ المقصّ، وألقيت بنفسي عليه، وذبحته.

قلتُ متلعثمةً:

ـ علينا الاتصال بالشرطة.

ـ لا.

ـ هناك دوافع. «بي»، لقد كان والدك شخصاً بغيضاً.

ـ نعم، لكن والدتي لا، وقد قتلتُها أيضاً.

ـ ماذا؟

ـ لمصلحتها. لن تحتمل رؤية زوجها، وعلى وجه الخصوص أرضيتها، على هذه الحالة. ذهبت إلى حجرتها حيث كانت تتأمل مقتنياتها على الإنترنت، منتشيةً أمام شاشتها، مأخوذةً بأكواب صغيرة، لدرجة أنها لم تنتبه إليَّ وأنا قادمٌ من خلفها. لقد حززت عنقها بذات المقص.

مكثت مصدومة.

ـ أنا لستُ خجِلاً. لو كان بإمكاني فعل ذلك مجدداً لفعلته، لا أعرف لماذا انتظرت كل هذا الوقت.

ـ أنت قاصرٌ ومن حقك الحصول على معاملة خاصة.

ـ سأهرب. كان عليَّ فقط تسجيل الدخول إلى بنك والدي حيث أدخلت على المتصفح اسم المستخدم وكلمة السر وحولت كل ما في رصيده البنكي إلى رصيدي. لن تتخيَّلي كم أنا ثريّ، يا آنج، ارحلي معي، سنعيش حياة أحلامنا، سنسافر إلى كل مكان. لن نكون أغبياء لدرجة اقتناء منزل، سنعيش في قصور العالم أجمع.

ـ «بي»، ما تقترحه ليس واقعياً. لقد عانيتَ ـ بسبب والديك ـ من نقص في الواقعية، وجريمتك المزدوجة هي تعبير عن ذلك.

ـ أنتِ على حق. لقد قتلتُ أشخاصاً لم يكونوا حقيقيين، ما من خطأ في هذا.

ـ في نظر القانون، الأمر ليس بهذه البساطة. اتَّصِل بالشرطة من فضلك، ستكون فرصةً فريدةً للدخول إلى العالم الواقعي.

ـ لا أرغب في دخول السجن.

ـ سأشهد على ما فعله والداك بك. لن تتم تبرئتك، لكنك ستحصل على حكم مخفَّف. أنا واثقة من ذلك.

ـ سأزيد الوضع سوءاً، لن أدَّعي أن ما فعلته ضرب من الجنون، لم أتصرف تحت تأثير الهذيان. الشيء الوحيد الذي لا أفهمه هو سبب عدم قتلي لهما قبل وقتٍ طويل، من دون شك كان الأمر بحاجة إلى الحد الأدنى من القوة البدنية للقيام به.

ـ لا يمكنك إنكار أنَّ الغضب هو ما دفعك إلى هذا الفعل.

ـ هذا الغضب يسكنني منذ زمن طويل. إن المرآة أحادية الجانب كانت الشرارة التي أضرمت النار في مخازن الغضب التي كانت راكدةً داخلي منذ عشر سنوات على الأقل.

ـ لم تكن ترغب بقتل والديك وأنت في السادسة من العمر.

ـ تحدثي عن نفسك. أتذكر جيداً المرة الأولى التي أردت فيها القيام بذلك، كانت في جزر كايمان، كنا جالسين على شرفة مطعم فخم، على الطاولة المجاورة كان معارفنا الأثرياء يتناولون عشاءهم. عندما حان وقت الدفع، اكتشف أصحاب المطعم أن هؤلاء الأصدقاء الأثرياء كانوا ممنوعين

من استخدام حساباتهم البنكية وقاموا بطردهم، وصادف أنني أحب هؤلاء الأشخاص الذين لديهم طفل في مثل سني. اقترحت على والدي دفع الفاتورة عنهم، فانفجر ضاحكاً بازدراء. لاحقاً طلبت من والدتي تفسيراً، قالت: «هيا يا عزيزي، لا يمكننا تحمُّل بؤس العالم كله على أكتافنا»، فقلت: «كل البؤس! لا، إنه بؤس غوستاف فحسب». ألححتُ، فقالت والدتي بأن غوستاف بريء، لكنَّ والديه محتالان ويستحقان العقاب. لاحقاً أدركت أن والِدَيْ غوستاف لم يكونا أقل احتيالاً من والديَّ، إنهما فقط أقل ذكاء. منذ ذاك الوقت، تمنَّيتُ أن أكون السبب في موتٍ وحشيٍّ لوالديّ.

صمتُّ، مغلوبةً على أمري.

ـ باختصار، ليست لدي أيّ نية أن أسلِّم نفسي.

ـ فلتذهب إذن.

ـ ألن ترافقيني؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ إن الحياة التي تقترحها عليّ لا تستهويني.

ـ وأنتِ لا تحبينني.

ـ أحبك كثيراً.

تنهَّد:

ـ اطمئني، لم أكن أتمنى أن يغيّرَ قتلي لوالديّ موقفك تجاهي. لكنني سأفتقدك.

ـ وأنا أيضاً، سأفتقدك.

لامسته عبارتي كثيراً فأشرقت عيناه، لبضع لحظات كان جميلاً. خلَّصَتْهُ فعْلَتُه من خبث سن البلوغ الأخرق. فابتسمت.

ـ سأنصرف، «بي».

ـ آنج...

ـ نعم.

ـ أنت غيَّرتِني، لقد غدوتُ قارئاً، سأقرأ الكتب الرائعة على مدار حياتي، ولن أنسى أبداً من أعطاني هذا الذوق.

لم أجرؤ على إخباره بأننا لولا والده لما كنا التقينا. صافحته وغادرت دون أن أنظر إلى الوراء.

دونات لم تكن هناك لتخفِّف عني، فانهرتُ باكيةً.

بصرف النظر عن حزني لفكرة عدم رؤية «بي» مجدداً، كنت سأشعر بذنب عميق ولا معنى له، فأنا لم أستطع منع شخص بريء من أن يُصبح قاتلاً. لا شك أنه ضربٌ من الغباء أن أفترض امتلاكي لاستطاعة كهذه.

لكن «بي» لخَّصَ الأمر بطريقة جيدة، كان تأثيري عليه هو تحويله إلى قارئ للأدب العظيم، الذي بدوره قد حمله إلى مدرسة الإيذاء. لقد قام كل من أسخيليوس وسوفوكليس وشكسبير، على سبيل المثال لا الحصر، بإعطاء أمرٍ لشاب رائع يتضمَّن التخلص من نفايات كهذه.

حتى وإن لم أزوِّده بسلاح الجريمة، لكنني قدمتُ له تسليحاً أدبياً، حيث يحتوي كل نصٍّ عظيمٍ على التكفير وجرائم القتل. لم تكن هذه نيَّتي، لكنني وبكل أمانة كنت أعرف بماذا يُرصَفُ الجحيم.

لم يتم العثور على أي أثر لـ «بي»، كما أصدرت الشرطة بياناً قالت فيه: إن مراهقاً شوهِدَ جالساً على عتبة المنزل في اليوم التالي للجريمة، برفقة فتاة في مثل سنِّه، وكانت تبدو منهارةً، وطُلِبَ منها أن تعرِّف عن نفسها.

ـ لستِ أنتِ، أليس كذلك؟

سألتني دونات.

ـ لا، أنا أكبر سناً.

إن الشباب موهبة، يستغرق اكتسابها زمناً. بعد سنوات عديدة أصبحت شابة أخيراً، لقد علمتني جريمة «بي» المزدوجة ذلك.



"المناطيد" حرية الخفة والهشاشة في مجتمع مادي ورمادي، تعنونها نهاية سريعة وصادمة بفعل الكشف، والعنف الذي لا يولد إلاه.

العزلة والوحدة، شخصيات شبه مستحيلة، حالة من التحول التي تبدأ بقراءات من الأدب الكلاسيكي لشاب يعاني من عسر في القراءة وخلاصه من سلطة أبوين حولاه إلى وحش بري، في بيئة برجوازية يحكمها الزيف وتديرها القسوة وتؤثث لها الرقابة.

ما بين الواقع والخيال وبأسلوبها البسيط غير المتكلف والفكاهي على نجل، أسلوب تتفوق فيه الحركة على الوصف، وباقتصاد في المفردات استطاعت "إيميلي نوتومب" ربط سيكولوجيا الواقع بالأدب بخيط خيال واهٍ ولا معقول.



إخراج وتصميم:



ISBN 978-9-9226913-6-7

